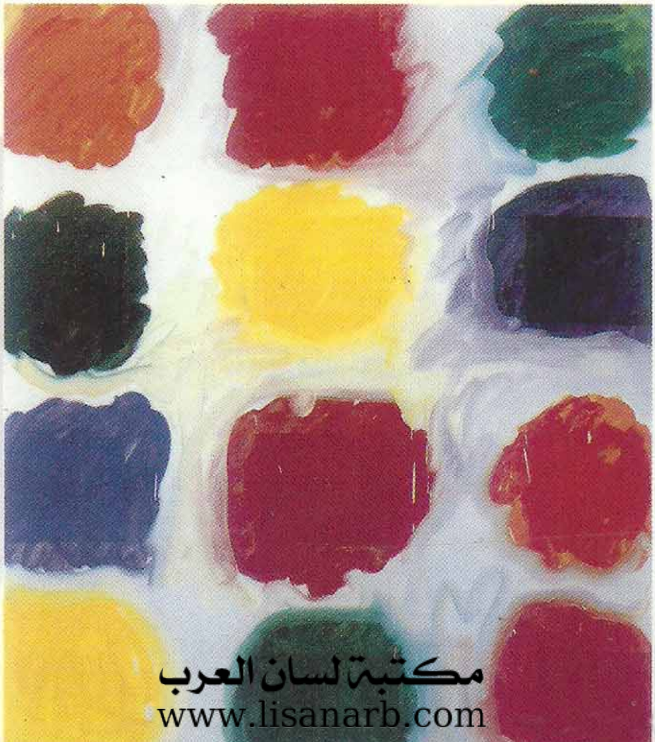
سعيد بنكَراد

السميائيات والتأويل

مدخل لسميائيات ش.س. بورس



المركز الثقافي العربي

شكر

اتقدم بجزيل الشكر الى الاساتذة :

ـ أحمد الفوحي

ـ محمود ميري

ـ عبدالعلي اليزمي

ـ جمال حيمر

فلديهم وجدت التشجيع والمساعدة والدعم والنقد احياناً

الإهداء

الى طلبة السنة الرابعة أدب عربي

بكلية الآداب بمكناس

الفهرست

تنبيه لابد منه
حول النطق الصحيح لـ Peirce

إن اسم Peirce يجب أن يكتب وينطق بورس وليس بيرس.

وكل دارسي بورس يشددون على ضرورة الالتزام بالنطق الصحيح لهذا الاسم. وهذا التحذير عادة ما يشير إليه هؤلاء الكتاب في بداية كتبهم أو مقالاتهم. إلا أن هذا التشديد لا نجد له أي صدى في الكتابات العربية. فهم يكتبون **Peirce** بيرس ولا يكلفون أنفسهم عناء التأكد من النطق الصحيح. (نستثني من هؤلاء بطبيعة الحال حنون مبارك الذي وعى هذه التحذيرات، لذلك فهو يكتب، في كتابه دروس في السميائيات، بورس وليس بيرس). ويبدو أن التمادي في كتابة هذا الاسم بهذه الطريقة يعتبر إساءة لهذا الفيلسوف وإساءة لتراثه. ونورد فيما يلي مجموعة من الشواهد لإثبات ذلك :

1- ينبهنا دولودال في كتابيه :

-**Peirce (C S) : Ecrits sur le signe** , Ed Seuil Paris 1978
- **Deledalle (Gérard) : La philosophie Americaine** , éd, Nouveaux horizons, 1978

إلى ضرورة الالتزام بالكتابة الصحيحة لاسم بورس :

– فهو يشير في هامش الصفحة 7 من الكتاب الأول إلى النطق الصحيح قائلا : - prononcer : Peurce ويقول في كتابه الثاني ص : 131 : **prononcer : Peurce**

2- أما لودفيننغ ماركوز ، فيقول في كتابه :

– Marcuse, Ludwig : La Philosophie Americaine,éd Gallimard, col Idées, 1967

ص 49 : Il l'applelaient professor peirce, bien qu'il ne fût pas professeur et que son nom ne s'écrivît pas **Peirce**, **mais Poerss**...

3- أما بول غوبلي وليتزا جانز ، فيقولان في كتابهما :

Semiotique for Beginners , éd ICON Books , 1997

ص 18 : " Hailed as the formest American Philosopher, Charles Peirce (**pronounced purse**) was born into....

لهذه الأسباب سنلتزم في كتابنا هذا بالنطق الصحيح لهذا الاسم وسنكتب Peirce بورس وليس بيرس .

شارل سندرس بورس

مسار حياة*

" لم يكن بوسعي أن أدرس أي شيء سواء تعلق الأمر بالرياضيات أوالأخلاق أو الميتافيزيقا أوالجاذبية أوالديناميكية الحرارية أو علم البصريات أوالكيمياء أو علم التشريح المقارن أوعلم الفلك ؛ أو علم النفس أو علم الصواتة أوالاقتصاد أو تاريخ العلوم، وكذا الويست (ضرب من لعب الورق) والرجال والنساء والخمر والميتولوجيا، إلا من زاوية نظر سميائية " .

ش . س . بورس

في التاسع عشر من أبريل 1914 توفي شارل سندرس بورس مؤسس السميائيات الحديثة، وكان آنذاك في الخامسة والسبعين من عمره ، «معزولا ومحروما من كل شيء، بلا صديق ولا مريد ولا ناشر، كان حينها مايزال منكبا على إنجاز مؤلفه الخاص بالمنطق » .

بهذه العبارات ينهي ويس سيرة بورس في Dictionary of American Biography.

---

* – اعتمدنا في كتابة هذه السيرة على الكتب التالية :

- G Deledalle : La Philosophie américaine, éd , Nouveaux horizons, 1983
- Ludwig Marcuse : La Philosophie américaine,éd Gallimard, col Idées, 1967
- Peirce , Textes Anticartésiens, Présentations et traduction , Joseph Chenu, éd Aubier , 1984
- Nicole Everaert-Desmedt : Le Processus *interprétatif* , Introduction à la sémiotique de C . S Peirce, éd Mardaga éditeur, 1990

توفي علم من أكثر الأعلام الفلسفية أصالة وإبداعا بعد حياة مليئة بالتقلبات والإخفاقات التي طالت كل شيء في حياته. فلقد عاش أغلب فترات حياته فقيرا معدما محروما من أي وضع اعتباري أو مادي، تاركا لنا تراثا ضخما في شتى مجالات المعرفة، أغلبه لم يعرف الطريق إلى النشر إلا بعد وفاته بسنوات.

ففي العاشر من سبتمبر 1839ولد شارل سندرس بورس في كامبردج في ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة الأمريكية من أب عالم عَدّه البعض من ألمع علماء أمريكا في القرن التاسع عشر، فلقد كان بنجمان بورس أستاذا كبيرا للرياضيات لمدة ثلاثين سنه في جامعة هارفارد حتى قيل إن بورس ولد في " حرم جامعي قائم الذات " . وفي هذا البيت المفعم بحب العلم والثقافة نشأ بورس وترعرع. وبالإضافة إلى ثقافة الوالد وعلمه، كان بيت الأسرة قبلة للفنانين والعلماء والأدباء من كل اتجاه، الشيء الذي مكن بورس من الاحتكاك المبكر برجال العلم والتعرف عن قرب على عوالمهم وطباعهم واهتماماتهم.

ولقد كان أبوه أول أساتذته. فعلى يديه تعلم، وهو ما يزال حديث السن، الكيمياء والرياضيات. وهو كانت عنده ميول فطرية للمنطق والفلسفة وهما المجالان اللذان سيكرس لهما حياة بأكملها. وهكذا، وفي سن مبكرة جدا سيطلع بورس على كتاب كانط " نقد العقل الخالص " الذي يقال إنه حفظه عن ظهر قلب.

وفي سن السادسة عشرة من عمره أدخله والده إلى جامعة هارفارد لكي يتابع دروسا في الرياضيات والفيزياء، ثم الكيمياء

ليحصل على شهادة عليا سنة 1860 . وعلى الميتريز سنة 1862 ، وعلى الإجازة في الكيمياء سنة 1863 .

وبفضل علاقات والده ، سيحصل على وظيفة سنة 1860 في المصلحة الجيوديزية (علم من علوم الأرض) للولايات المتحدة الأمريكية ، وهي الوظيفة التي ستكون مصدر عيشه طوال حياته .

وفي سنة 1862 عقد قرانه على فتاة أمريكية من عائلة عريقة تدعى هارييت ميلوزينا فاي . وفي نفس الفترة تقريبا تعرف على وليام جيمس صديق عمره ، وكان بورس آنذاك يكبره بثلاث سنوات .

بعد ذلك بثلاث سنوات سيلقي دروساً حول المنطق والفلسفة في جامعة هارفارد كأستاذ مؤقت . ولم تدم هذه الدروس سوى موسمين جامعيين : 1864/ 1865 ثم 1866/ 1867 . ولن يحصل أبدا على منصب دائم في الجامعة لا في هارفارد ولا في جامعة جون هوبكينز ولا في أية جامعة أخرى بسبب مواقفه ومزاجه كما سنرى ذلك .

في هذه السنة ، أي 1867 ، وكان عمره آنذاك 28 سنة ، سيكتب بورس مجموعة من المقالات المؤسسة التي سيكون لها أثر حاسم في تطور فكره السميائي ، رغم كل التعديلات التي ستلحق مصطلحيته وتصوره للقضايا الخاصة بالسميائيات تحديدا . وهذه المقالات هي :

- Questions concernant certains facultés que l'on prête à l'homme
- Conséquences de quatre incapacités
- Fondements de la validité des lois logiques

وهي المقالات التي عمل دافيد سافان - أحد المهتمين الكبار بفكر بورس - على جمعها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان: Textes Fondamentaux de la Sémiotique . وكان ذلك سنة 1987 .

وفي سنة 1875 رحل إلى أوروبا، وتعاون مع مجموعة من العلمـــاء في : l'observatoire et le bureau des longitudes . وهناك تعرف على هنري جيمس . وفي هذه الفترة أيضا انفصل عن زوجته الأمريكية، التي غادرت فرنسا عائدة إلى أمريكا بينما مكث هو هناك سنتين كاملتين .

وبعد عودته إلي أمريكا كتب مقالتين هامتين الأولى :

- Comment se fixe la croyance سنة (1878)
- Comment rendre nos idées claires (1879)

ولقد كتب هذين المقالين باللغة الفرنسية .

وقد نشر جوزيف شوني سنة 1984هذين المقالين بالإضافة إلى المقالات الثلاثة السابقة مترجمة إلى الفرنسية تحت عنوان : Textes anticartésiens .

وقد التحق سنة 1879 ، كأستاذ مؤقت أيضاً، بجامعة جون هوبكينز في بالتيمور ليدرس المنطق لمدة خمس سنوات حتى سنة 1884 .

وقبل ذلك، أي في سنة 1883 ، تزوج من جديد بفتاة فرنسية من مدينة نانسي، اسمها جولييت أنيت بورتالي . وهي المرأة التي عاش معها حتى مماته سنة 1914 ، وقد قاسمته الجوع والبرد والخيبات المتعددة .

فقد وجد نفسه، بعد أن رفضت الجامعة تجديد عقده والالتحاق بهيئة التدريس كأستاذ رسمي، بدون دخل تقريبا. فاضطر إلى بيع مكتبته القيمة. ولهذه المكتبة قصة. فقد قام وهو في أوروبا باقتناء خزانة كاملة في المنطق القروسطي، بلغ عدد كتبها 295 كتابا وأحضرها معه من أوروبا إلى أمريكا وكان شديد الاعتزاز بها، إلا أن الحاجة كما رأينا اضطرته إلى بيعها بـ 550 دولارا فقط ليستجيب لبعض حاجاته.

وفي سنة 1887، وكان عمره آنذاك ثمانية وأربعين سنة، انسحب من الحياة العامة وعاد إلى ميلفورد حيث بنى منزلا من مال ورثه واستقر فيه بشكل دائم. إلا أنه، وكما هي عادته، قد بذّر ما تبقى من المال بسرعة، ليجد نفسه من جديد في وضعية الفقر والحرمان. وابتداء من هذه الفترة سيواضب على كتابة مقالات لبعض المجلات مقابل أجر زهيد لم يكن كافيا لسد الحد الأدنى من حاجاته. وبموازاة ذلك سينكب على إنجاز مشروع ضخم يتمثل في كتابة 12مجلدا حول المنطق، إلا أنه لم يتمّ سوى مجلدين لم يعرفا طريقهما إلى النشر إلا بعد وفاته.

وفي سنة 1903 ألقى بورس، بفضل تدخل صديقه وليام جيمس، سلسلة من المحاضرات حول المنطق في جامعة هارفارد. وستنشر هذه المحاضرات تحت عنوان :

Le raisonnement et la logique des choses /

بإشراف كل من كنيت لاين كتنر وهيلاري بوتنام، وقامت كرستيان شوفيني بنقل هذه المحاضرات إلى الفرنسية سنة 1995.

إلا أن أهم ما يميز المرحلة التالية الممتدة من 1903 إلى 1911 هي مراسلاته الدائمة مع السيدة ويلبي. وفي هذه المراسلات أوضح بورس الكثير من القضايا الخاصة بتصوره للفعل السيمائي وكذا الحقول المرتبطة به كالمنطق والفينومينولوجيا. وهكذا أعاد صياغة مجموعة من المفاهيم كالمؤول والثالثانية التي طرحها في 1867 بشكل مغاير أو أقل دقة قبل أن يعود من جديد ليدقق مضمونها.

والسيدة ويلبي، هي سيدة إنجليزية كانت تهتم بقضايا المعنى والتأويل وإنتاج الدلالات. وقد حاولت هي الأخرى تأسيس علم للدلالات كانت تريده أن يكون علما دقيقا أطلقت عليه : la signifique. وأصدرت في هذا المجال، قبل أن تتعرف على بورس وترتبط معه بهذه المراسلات كتابا بعنوان "المعنى والدلالة والتأويل" سنة 1896، وبعده أصدرت كتابا آخر بعنوان " بذور المعنى ". وكما يبدو من التعريف الذي تقدمه لما تسميه la signifique فإنها كانت قريبة جدا من التعريفات المتعددة التي يعطيها بورس للسميائيات خاصة فيما يتعلق بعلاقة السميائيات بالمنطق. فهي تعرف هذا النشاط بقولها : « إن la signifique هي علم للدلالة شريطة الاعتراف بطابعه العملي باعتباره منهجا لفكر موجود في كل أشكال النشاط الذهني، بما في ذلك النشاط المنطقي ».

ومن جهة ثانية، وكما سنرى ذلك في فصول هذا الكتاب، فإن la signifique ليست بعيدة عن مفهوم السميوز الذي بلوره بورس انطلاقا من دراسته للعلامة ومكوناتها وطبيعة العلاقة الرابطة بين هذه المكونات. ففي الحالة الأولى كما في الحالة الثانية، فإن الأمر يتعلق بالسيرورة المؤدية إلى إنتاج المعنى.

ولمدة سنوات كان بورس يحدث هذه السيدة العالمة عن مشروعه السميائي، بتشعباته المتعددة الفينومونولوجية حيث ركز على تحديد المقولات بعيدا عن التصور الأرسطي وبعيدا عن التصور الكانطي، مستبعدا في نفس الآن تصورات هوسرل عن الفينومينولوجيا التي يقول عنها إنها « تثير عنده الغثيان » لارتكازها على الطابع المباشر للتجربة كما جاء في رسالة إلى السيدة ويلبي.

وقد قضى ما بقي من عمره يعاني من الجوع والفقر والمرض، منسيا ومعزولا في ميلفورد وقد أنهكه الحرمان، بلا صديق ولا أتباع ولا صيت ولا جاه. منكبا على كتبه ومشروعه العلمي الذي لا ينتهي ويكتب ما يقرب من ألفي كلمة يوميا إلى أن توفي سنة 1914.

لقد كانت أعماله موزعة بين الفلسفة والمنطق والرياضيات والميتافيزيقا والدين والكيمياء والفيزياء وعلم البصريات وعلم النفس والتاريخ القديم. كما كان يقوم بترجمة بعض النصوص من الألمانية واللاتينية إلى اللغة الانجليزية. هذا بالإضافة إلى أنشطة أخرى ليس أقلها غرابة تخصصه في "تذوق الخمر".

وهناك لغز حير كل الذين اطلعوا على تراث بورس وحياته. فرغم كل ما قيل عن عبقريته ونبوغه وسعة اطلاعه فإنه لم يستطع أبدا الحصول على منصب أستاذ رسمي في الجامعة (جامعة جون هوبكينز التي قدم لها طلبه مرارا وتكرارا). ولقد أثار هذا الرفض اهتمام العديد من الباحثين الذين حاولوا الكشف عن سر هذا الرفض. فكل شيء كان يرشح بورس لمنصب أستاذ للفلسفة في هذه الجامعة أو في غيرها. لقد كان أكثر الفلاسفة أصالة في أمريكا

في تلك المرحلة، كما كان واسع الاطلاع متعدد الاهتمامات. ورغم ذلك تم إبعاده عن الجامعة ولم تتح له فرصة الدفاع عن آرائه أمام جمهور الباحثين الجامعيين.

لقد رد البعض هذا الرفض إلى حادثة زواجه ثم طلاقه. وعلى الرغم من أن الطلاق في تلك المرحلة لم يكن بالسلوك المقبول، فإن ذلك لا يمكن أن يشكل تفسيرا مقنعا لرفض الجامعة لترشيحه. فهو لم يكن أول من تزوج وطلق، فكثيرون من الباحثين أمثاله تزوجوا وطلقوا ورغم ذلك كانوا أساتذة في الجامعة.

وقيل أيضا إنه لم يكن بالمواطن الذي يراعي في سلوكه متطلبات محيطه. فلم يكن «قادرا على الخضوع للمقتضيات التي تتطلبها الأخلاق». ويلاحظ لودفينغ ماركوز الذي أورد هذه التأويلات في كتابه الذي أحلنا عليه في هامش هذه الصفحات، أن هذه الجملة ملتبسة وغامضة ولا تعني أي شيء. فليس مطلوبا من عالم أن يقدم كشف حساب عن سلوكه اليومي لكي يقبل كأستاذ.

بالإضافة إلى ذلك هناك من لم يستبعد أن يكون سبب رفضه ميولاته الى شرب الخمر، فهو، بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية والمنطقية الواسعة، كان مطلعا على تقنيات تذوق الخمر. فقد عهد به أبوه إلى مكلف بتخزين الخمور في فرنسا ليدربه على تذوق الخمر. إلا أنه، وكما يقال، لم يكن يكتفي بالتذوق !!!

وهناك من رد أسباب هذا الرفض إلى طبيعته الفكرية ذاتها، فالملاحظ أنه طيلة حياته لم يكتب سوى كتابين، نشر أحدهما في حياته، ولم ير الآخر النور إلا بعد مماته، فهو لم يكن يعير اهتماما

لهذا الأمر، وكان يكتب في ميادين متعددة ومتضاربة ومتباعدة عن بعضها البعض، الشيء الذي يجعل من تحديد خيط ضابط لأفكاره أمرا صعبا. والذين اطلعوا على بعض كتاباته يدركون ذلك جيدا. ومضمون أعماله التي جمعت بعد موته في مجلدات تحت عنوان collected papers يوضح ذلك. فلقد عمل مجموعة من الباحثين لفترة طويلة من أجل التمييز بين الحقول المتعددة التي تخوض فيها هذه الكتابات (عمل جيرار دولودال فيما يتعلق بالسميائيات، عمل د. سافان، جوزيف شونو، تريزا كالفي فيما يتعلق بالنصوص الفلسفية، المحاضرات حول المنطق التي جمعها كنيت كتنر . . . الخ). فلقد كان قليل الاهتمام بتنظيم أفكاره، وكان ذلك يعد "عيبا" خاصة عند شخص ستكون مهمته هي تعليم الطلبة.

وقيل أيضا إنه كان يفتقد إلى نسق عام تنتظم وتصنف أفكاره ضمنه، وهو ما يعني عدم إيمانه بنسق فلسفي بعينه. إلا أن هذا أيضا لا يمكن أن يكون سببا كافيا لكي يحرم من التدريس في الجامعة. فمفكرون كبار لم يكتبوا كتبا ولم ينشروا مجلدات، ولم يعلنوا انتماءهم إلى تيار فلسفي بعينه في تلك الفترة وفي غيرها، ومع ذلك احتلوا مناصب كبرى في الجامعة.

إلا أن هذه المواقف ذاتها لا تفسر كل شيء. فلم تكن هي وحدها التي حرمته من الحصول على منصب أستاذ جامعي. لقد كان لمزاجه وموقفه من الناس وسلوكه دور أساسي في ذلك. فلم يكن بورس اجتماعيا، ولم يكن يعرف ماذا يعني أن يكون الإنسان اجتماعيا، فهو قد خصص كل وقته للبحث العلمي، الشيء الذي

جعله ينقطع عن الدنيا وما فيها. فالآخرون كانوا غوغاء في نظره، وكما كان يقول «فالإنسان هو أساسا كائن اجتماعي، ولكن شتان بين الكائن الاجتماعي وبهيمة في قطيع». وهذا موقف غني عن كل شرح وتوضيح.

يضاف إلى ذلك تعاليه وازدراءه للآخرين، وهو ازدراء لم يسلم منه حتى وليام جيمس نفسه وهو أقرب الناس إليه وكان أكثر من وقف معه في الشدائد والملمات، بل حدث أن قام جيمس بتنظم اكتتاب لكي يساعد صديقه على مجابهة متطلبات الحياة. ورغم ذلك، فقد حدث أن لامه على طريقة تفكيره، وحثه على "انتهاج الطريق الصحيح في التفكير" كما أورد ذلك ويس الذي كتب سيرته. وسيعبر بورس في رسالة إلى جيمس عن تصوره للناس وعن الصورة التي يرسمها لنفسه قائلا: «لقد تكون لدي شيئا فشيئا نوع من التعالي مفاده ما يلي: " أنت أيها الآخر رجل طيب على طريقتك، ولا يهمني بالتأكيد من تكون، أما أنا، وكما تعرف، فإني السيد بورس، الشهير باكتشافاته العلمية العديدة، والشهير خاصة بتواضعه الجم، وفي هذا المجال لا يضاهيني أحد». بطبيعة الحال فالموقف غني عن أي تعليق.

وهناك أيضا موقفه من الجامعة ذاتها، فبقدر ما ظلت هذه المؤسسة مستعصية عليه، بقدر ما كان يكن لها الاحتقار والازدراء. فهي لم تكن عنده سوى " فضاء للجنتلمان والرياضيين "(والمقصود هنا جامعة هارفارد بالأساس). لهذا لم يكن يعير كبير اهتمام لأساليب التدريس والبيداغوجيا، فلم يكن ير في نفسه ملقنا هادئا

ومطمئنا لمجموعة من المعارف. وهذا ما يبدو من كلام طالبة تابعت بعض دروسه، حين أسندت إليه ذات مرة مهمة إلقاء بعضها، بشكل مؤقت، على طلبة الجامعة في جون هوبكينز ذاتها. لقد قالت تلك الطالبة بأنه « ولمدة ثلاث سنوات لم يكلف نفسه عناء النظر إلينا أو مساءلتنا أو الانتباه إلينا » وبأن أفكاره « كانت لا توصف، فهي لا تفضي إلى أي شيء» و« بأنه لا يكلف نفسه عناء توضيح أفكاره»(1).

وهذا ليس غريبا، فهو كان يعتقد « أن أفكاره شديدة الترابط فيما بينها، وعلى عاتق الآخرين تقع مهمة البحث عن هذه الترابطات. إنه يكتفي بتحليل الأفكار، ليترك للقارئ مهمة استنباط النتائج وبناء الأطروحات ». ولعل هذا ما يفسر « تردد الناشرين ورفضهم لأعماله».

ولنا أن نتصور إلى أي حد تصل الثقة بالنفس إن لم نقل التعالي المفرط بشخص يقدم طلبا لشغل منصب أستاذ في الجامعة، ويشترط على رئيس الجامعة : « في المقام الأول أن يكون هو الوحيد الذي يدرس مادة المنطق، وأن يتم تحويل وظيفته إلى منصب أستاذ رسمي ». هكذا كان يتعامل بورس مع طلب الالتحاق بالجامعة.

إن هذه الأسباب مجتمعة لم تحرمه فقط من الحصول على منصب في الجامعة فحسب، بل خلقت له الكثير من المتاعب في حياته العامة والخاصة على السواء أيضا. فقد اضطر للانفصال عن زوجته الأولى، وناصبه الكثير من زملائه العداء، ولم ينجح في خلق

---

(1) G Deledalle : La Philosophie américaine, p . 134

الكثير من الأصدقاء، باستثناء مجموعة قليلة منهم وعلى رأسها وليام جيمس الذي ظل وفيا له طيلة حياته.

ومع ذلك كله فالأسباب الحقيقية لم يشر إليها إلا لماما، أو تم تجنبها باستمرار. وهي أسباب لا يبدو أن لها علاقة بالزواج وبالطلاق أو بمعاقرة الخمرة أو بالمزاج الصعب الخ، وإنما لها علاقة بالنظام الفكري والتقاليد السائدة في الجامعة آنذاك (خاصة جامعة جون هوبكينز التي كانت حديثة التأسيس آنذاك)، وهو نظام كان يتسم بالمحافظة واليقينية والامتثالية، لذلك كان يتطلب أفكارا لا تزعج. ولقد قال وليام جيمس، عن هذه الجامعة ،بـ «أنها كانت توكل منصب أستاذ إلى شخص موثوق به ويتميز بالعقائدية»، وعن رئيس الجامعة قال بأنه شخص حقود لا يرتاح "للمتهاونين" في أفكارهم.

فهل كان بورس من هذه العينة؟ هل كان رجلا يمكن أن "يؤتمن" على قيم الجامعة ونظامها، وله السلوك الفكري العقائدي المطلوب؟ لا نعتقد ذلك. وهذا لا يتضمن أية إيحاءات غير ما تعنيه مباشرة. فبورس بالتأكيد، لم يكن من الوجهة العقائدية، يشكل خطرا على الجامعة وعلى قيمها الدينية والأخلاقية. فهو لم يدع إلى الإلحاد، ولم يكفر بالنظام الاجتماعي وبقيمه، كما لم يشكك في التراتبية داخل الجامعة وخارجها، إلا أن نظرته إلى البحث العلمي ودور الجامعة وكذا دور الأستاذ ورسالته كانت بالتأكيد مزعجة.

فلم تكن مهمة الجامعة عنده هي تقديم نتائج علمية جاهزة، كما لم يكن يرى أن الجامعة هي مؤسسة لتخريج الباحثين عن وظائف

توفر لحاملي الشهادات مصدر رزق دائم. لقد كان يعتقد أن دورالجامعة الرئيس هو البحث العلمي، فهي مكان للتدريس في حدود أن هذا التعليم يقود إلى تعليم الطلبة كيف يفكرون وينتجون أفكارا مستقلة. إن دورالجامعة هو تربية الناس وتوجيههم نحو البحث عن المعرفة بطرقهم الخاصة. « فأن يجلس الطالب في هذه القاعة أو تلك من قاعات الدروس فذاك أمر ثانوي، فالمطلوب من أي أستاذ هو شحذ فكره المنطقي وذكائه في شتى مجالات المعرفة. فالتربية عنده لم تكن سوى تربية من أجل الاستمرار في التفكير بعد أن يكون الطالب قد تعود على ذلك »[2]. ولقد كان هذا التصور في تلك المرحلة تصورا مزعجا عند القائمين على جامعة كان ينظر إليها رجال الدين باعتبارها بؤرة للكفر.

وهناك من شبه الإخفاقات الأكاديمية لبورس بما حصل لسقراط. فسقراط قتل لأنه كان، في نظر مواطنيه، يفسد الشباب، فقد كان يدفعهم إلى إعادة النظر في المقولات الموروثة عن السلف. ولم يكن تأثير بورس من هذا الحجم. لقد كان يتوجه إلى نخبة محدودة العدد، كما أنه لم يكن يدفعها للإيمان بآلهة جديدة، ولكنه كان يدفعها إلى التحليل المنطقي. وهذا ذاته لم يكن يشكل خطورة حقيقية على قيم المجتمع. « لقد جُرم بورس بناء على ما لم يفعل: فهو لم يكن يقود جمهور الأكاديميين إلى الله والروح والخلود»، كما يقول ليدفيغ ماركوز. «فمأساته لا تكمن في أن أفكاره كانت غير مرغوب فيها، ولكنها تكمن في أنه لم يكن يتوفر على الأفكار

(2) Ludwig Marcuse : La Philosophie américaine, p 55

المرغوب فيها (. . . .) . لقد كان بورس بائعا فاشلا ، لا لأنه لم يكن يمتلك بضاعة جيدة ، بل لأنه كان يطرد الزبناء . فبعد مماته فقط استطاعت أعماله أن تتحرر من مبدعها الذي كان يسد في وجهها الأبواب» . [3]

سنوات بعد ذلك سيتذكر الناس بورس من جديد ، وسيوصف بأنه أكثر فلاسفة أمريكا المعاصرين أصالة ، وسيحتفى بتراثه الفلسفي والمنطقي والسميائي . وستقوم جامعة هارفارد بشراء مخطوطاته . وستقوم مجموعة من الأساتذة بجمعها في ثماني مجلدات تحت عنوان : Collected papers .

المجلدات الستة الأولى ظهرت ما بين 1931و1935 تحت إشراف هارتشورن ويس . وسننتظر إلى سنة 1958 ليظهر المجلدان الباقيان . وقد جمعت في هذه المجلدات الثمانية كل أعماله في المنطق والرياضيات والفلسفة والسميائيات والفيزياء .

(3) نفسه ص 59

مقدمة

بدءا يمكن القول إن السميائيات في تصور بورس، ليست مجرد أدوات إجرائية يمكن استثمارها في قراءة هذه الواقعة النصية أو تلك، كما لا يمكن أن تكون نموذجا تحليليا جاهزا قادرا عن الإجابة عن كل الأسئلة التي تطرحها الوقائع. إنها على النقيض من ذلك فعل، أي سميوز، والسميوز، كما سنرى ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب، سيرورة لإنتاج الدلالة ونمط في تداولها واستهلاكها. وبعبارة أخرى، إنها تصور متكامل للعالم. ذلك أن الإمساك بهذا العالم باعتباره سلسلة لامتناهية من الأنساق السميائية، أي باعتباره علامات، يشير إلى استحالة فصل العلامة عن الواقع، ما دام هذا الواقع نفسه يُنظر إليه باعتباره نسيجا من العلامات، أي سلسلة من الإحالات التي تضمحل لحظة استيعابها في الفعل الإنساني.

إلا أن موتها هذا ليس موتا نهائيا، إنه موت مؤقت وعرضي. فهذا الفعل الإنساني يولِّد من جديد لحظة تحققه، سلسلة من العلامات التي تُدرَج ضمن سلسلة جديدة من الإحالات، وهكذا دواليك. فكل فكر " هو فكر ناقص بالضرورة ويحتوى على الضمني والكامن " (بورس)، فهو يحتاج، لكي يحيل على فكر آخر، إلى فكر سابق وهكذا إلى ما لانهاية.

ولهذا فإن السميائيات، في تصور بورس، ليست صنافة جامدة تدرج أنواع العلامات في خانات قارة بشكل نهائي. إنها، على العكس من ذلك، ترد كل الأنساق إلى حركية الفعل الإنساني. إنها تجعل من الإنسان علامة وتجعل منه صانعا للعلامة وتقدمه كضحية لها في نفس الآن. فالإنسان هوالمنتج للسلوك الفردي وهو الذي يحول هذا السلوك إلى قاعدة جماعية، أي يجعل منه عادة تشتغل كنموذج يحكم السلوك الفردي. وهذه العادة هي ما يستمر في الحياة بعد موت العلامة. إنها ولادة جديدة : ولادة القيم الاجتماعية وشهادة على نموها واضمحلالها أي موتها، لتولد من تحت أنقاضها قيم جديدة. فلا وجود لتصنيف مسبق، فما يعين هو ذاته ما يشير إلى التجاوز : تجاوز العلامة لنفسها (فكل عنصر من عناصرها ينتج آثاره المعنوية الخاصة)، وتجاوز التصنيف لنفسه (كل تصنيف قد يولد تصنيفا جديدا هو تركيب لعنصرين أو أكثر).

وهي، من جهة ثانية، تدرك العالم باعتباره كلية (ليس هناك فصل بين الواقع والفكر)، ولكنها تضع هذا العالم للتداول باعتباره أنساقا غير قابلة للوصف الكلي (الفصل بين موضوع مباشر وموضوع ديناميكي)، فهي تعترف بأن النسق الدلالي - بحكم اندراجه ضمن حركية الواقع - غير قابل للوصف إلا جزئيا من جهة، وهي تعترف، من جهة ثانية، بنسبية القراءة وتعددها (الفصل بين مؤول مباشر ومؤول ديناميكي وآخر نهائي).

إلا أن هذه الثلاثية قد تثير الكثير من التساؤلات، فقد «يُعترض علينا بالقول : إن تحديد العلامة كبناء ثلاثي معناه نفي لها، ما دام كل

مكون من مكونات العلامة يتحول بدوره إلى علامة تستدعي ثلاثية، وتبعا لذلك اندحارا لامتناهيا يمنع العلامة من أن تكون علامة. إن هذا الاعتراض صحيح في حالة واحدة، الحالة التي تكون فيها نظرية العلامة منفصلة عن فعل العلامة. والحال أن الأمر ليس كذلك في نظرية بورس. فالفصل عنده بين النظرية والممارسة معناه خرق لمبدأ الامتداد. فالعلامة تولد وتنمو وتموت في الأشياء»[1].

فلهذا، فإن دائرة العلامات تتسع لتشمل كل الموجودات، بل إن الواقع ليس كذلك إلا في حدود مثوله أمامنا كعلامة، فلا يمكن تصور إدراك حقيقي يجعل من الموجودات كيانات مفصولة عن الذات التي تدركها، « فإذا قلتم بأن هذا الموضوع موجود في استقلال عن كوني أفكر فيه، فإن كلامكم لا معنى له ». (بورس)

من هنا كانت ضرورة العودة إلى الأصول المعرفية المحددة لكُنْه هذه السميائيات. وهذا أمر بالغ الأهمية، فنحن نعتقد أن ما هو أساس في أية نظرية ليس التقنيات والأدوات والمفاهيم المعزولة، إن هذه الأدوات أمر لاحق، ولا تشكل في نهاية الأمر سوى وجه مرئي لأساس معرفي هو وحده الضامن لهوية النظرية ووجودها. إن المظهر المعرفي لهذه النظرية هو ما يستهوينا، فهو وحده الذي قد يسعفنا على إدراك أفضل لخصوصية إنتاجنا الفكري والإبداعي. وسيلاحظ القارئ الحاذق أن ما يجمع بين تصورات معرفية متعددة وبين نظرية بورس، هو منطلقاتها الفلسفية وليس مجموع

(1) Deledalle, (Gérard) : "Avertissement aux lecteurs de Peirce" , in Langages n 58, P . 26

المصطلحات التي جاءت بها. بل يمكن القول ألا شيء يجمع بين هذه النظريات وبين تصور بورس على مستوى المصطلحات.

إن هذه السميائيات، كما أشرنا إلى ذلك في الفقرات السابقة، لا يمكن اختصارها في سلسلة من الأدوات الإجرائية الخالية من أية روح، لأنها ليست أجوبة عن أسئلة "محلية" و"عرضية" تخص هذا القطاع من المعرفة دون ذاك؛ وهي كذلك لم ترتبط -في تصوراتها النظرية والتطبيقية- بدرس بعينه قد يحد من امتدادها وشموليتها وغناها. لقد كانت التجربة الإنسانية في كليتها نقطة انطلاقها وغايتها في الآن نفسه. فالإنسان مهد العلامات، وهو منتجها ومستهلكها والمروج لها. فلا شيء يوجد خارج مدار ما ترسمه العلامات من سيرورات دلالية لا يمكن أن تقف عند حد معين.

إنها تساؤل حول المعنى وتساؤل حول شروط إنتاجه وأشكال تجليه. فماذا تعني السميوز، إن لم تكن لهاثا وراء معنى لا يستقر على حال. فالسميوز، شأنها في ذلك شأن الفكر عند بورس، فعل ناقص بالضرورة، إنها تحتوي، لحظة الإحالة، على الضمني والمحتمل والكامن. ولهذا فهي لا يمكن أن تكون تعيينا لمعنى مثبت في الواقعة بشكل نهائي، إنها على العكس من ذلك خزان لا ينتهي من الدلالات. وهذا إسهام أول من إسهامات بورس، فلا يمكن البحث عن المعنى خارج العلامات، ولا يمكن أن نفكر دون علامات، فالمعنى موجود في العلامات، والعلامات وحدها هي السبيل إلى إنتاج الدلالات وتداولها.

ورغم ذلك فإن بورس لم يكن قطعيا في تصوراته، فسلسلة الإحالات التي لا تنتهي عند حد بعينه هي هروب من المعنى، والهروب من المعنى كاللهاث وراءه، فلا أمل إذن في الخروج من دائرة المعنى، ولا أمل في الوصول إلى معنى كلي ونهائي، ألم يقل بورس: «إن السميوز في هروبها اللامتناهي من علامة إلى علامة ومن توسط إلى توسط، تتوقف لحظة انصهارها في العادة، لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل». [2]

إن الأمر يتعلق بمبدأ الامتداد: امتداد العلامة نحو الفعل، ورصد لأثر العلامة في الفعل. فهي تحيل على ما يوجد خارجها وتموت، ومن موتها تنبعث القاعدة والقانون والعادة. فالتأويل غايات، ونحن نؤول وفق متطلبات حاجاتنا بجميع أنواعها، فحاجتنا إلى الاستقرار على معنى يريحنا من لهاث قد لا يجدي في شيء أمر في غاية الأهمية. من هنا كانت الدلالة عند بورس مستويات. إن السميوز لامتناهية احتمالا، لكن الحاجات الإنسانية تقلص من حجمها وتفرض عليها حدودا. من هنا كانت الحاجة إلى مؤولات وليس إلى مؤول واحد، وهذا إسهام ثان. فالسميائيات عند بورس يمكن النظر إليها باعتبارها نظرية في التأويل، فما يحدد صحة العلامة هو الوجه المؤول داخلها، فالعلامة لا تحيل على موضوع فحسب، إنها، بالإضافة إلى ذلك، تكشف عن معرفة جديدة تخص هذا الموضوع.

---

(2) انظر. Umberto Eco:Le signe, éd labor, Bruxelles, 1988, p.205.
وصدرت ترجمة عربية للكتاب عن المركز الثقافي العربي بعنوان «القارىء في الحكاية».

ولأن الموضوع هو أصل الإحالة، فإنه يتجاوز العلامة في الوجود وفي التمثيل. فلا يمكن لفعل التمثيل الذي يقوم به الماثول أن يستوعب، من خلال إحالة واحدة، كل المظاهر المعرفية التي يشتمل عليها الموضوع. إن الموضوع أغنى من التمثيل، فالحاجة إلى تمثيل جديد يستعيد العناصر المنفلتة من التمثيل الأول أمر ضروري، بل هو أساس بناء الوقائع ومبرر قراءتها وتأويلها. لذا فالموضوع عند بورس أنواع. إنه في المقام الأول ما يبدو من خلال العلامة بشكل مباشر، وهو ثانيا ما توحي به العلامة من خلال فعل التمثيل ذاته، وهذا إسهام ثالث. فالإحالة الواحدة لا تستطيع استيعاب ما توفره التجربة في بعدها الواقعي (أسبقية المادة على الفكر).

تلك بعض الإسهامات النوعية التي جاءت بها سميائيات بورس. إنها إسهامات لا ندرك قيمتها الحقيقية إلا حين نتجاوز لائحة التصنيفات والتقسيمات الفرعية الخاصة بالعلامة، وهي تقسيمات توهم غير المختص بأن هذه النظرية معقدة وتستعصي على الفهم والإدراك. أما حين ندرك أن قراءة الوقائع الإنسانية (والنقد الأدبي جزء من هذه القراءة) ليست هلوسة مجانية أو هذيانا، ولا هي كتابة على هامش الكتابة الأولى، أو انطباعات لا يحكمها رابط ولا يجمع أجزاءها منطق، فإننا سنكتشف أن الذهاب نحو النص هو استنفار لرصيد معرفي هائل هو وحده الكفيل بتحويل القراءة إلى إنتاج للمعرفة، لا بسط لانفعالات ضحلة سريعة الزوال، لا تحرك في النص ساكنا، فهي كذلك الطائر الذي قضى الليل على غصن شجرة ضخمة فاعتقد أنه أرهق كاهلها، فراح في الصباح يقدم لها الاعتذارات ويطلب منها العفو.

فإذا أدركنا كل ذلك، وتجاوزنا مستوى التصنيفات المركبة التي تقدمها هذه النظرية من خلال وجهها المرئي، اتضح لنا أن نظرية بورس تقدم لنا إسهاما فعليا في قراءة النصوص وتأويلها وإدراك ما أمامها وما خلفها. فلا يكفي القول إن النصوص بؤرة للدلالات، فالدلالات كثيرة ومتنوعة، إلا أنها تتمنع ولاتسلم نفسها لأول عابر سبيل. إن الدلالة أسرار وكل سر يحيل على سر، وقد لا يكون السر الأخير سوى لحظة توهم الذات بأنها استقرت على دلالة بعينها.

فالعلامة لا يمكن أن تقف عند إحالة واحدة. فما يطلق العنان للدلالة هو نفسه ما يجعل من إيقافها أمرا مستحيلا. فالسيموز لا متناهية، ولا يمكن للدلالة أن تقف عند حد بعينه. فالنص عندما يتخلص من إرغامات المحفل المبدع يصبح في حل من أمره، ويسلم حينها نفسه لحركية تأويل لا تتوقف عند حد بعينه. تلك هي الخلاصة المباشرة لتصور بورس للدلالة وإنتاجها. إلا أن الوصول إلى ذلك يقتضي إلماما بقوانين الدلالة وأشكال وجودها ومستوياتها، ويقتضي أيضا إلماما بمنطق الإحالات ومنطق الانتقال من الزاوية المؤولة إلى موضوع التأويل. فموضوعات التأويل ليست واحدة ولا يمكن أن تكون كذلك؛ بل هي نفسها أنواع. وتلك طبيعة الممارسة الإنسانية وذاك هو سرها.

صحيح أن مفكرا تداوليا من طراز بورس لا يمكن أن يقبل بانسياب دلالي لا حد له. فهو يقر بأن التأويل يتم وفق حاجات نفعية، فكل تأويل عنده يتم وفق غايات خارج سميائية، إلا أن المقصود باللانهائية هنا هو إمكانية الانسياق وراء إحالات لا يمكن

نظريا أن تتوقف عند حد بعينه، فـ« الفكر بطبيعته ناقص ويحتوي علي الضمني والكامن ». ولهذا فإن كل فكر إنما يحيل على فكر آخر. وبعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بطريقة أخرى للقول إن التعدد هو ما يبرر وجود النص ووجود قراءاته. فكل ما في النص مرتبط بعوالم غير مرئية هي مبررالنص وضمانة على اشتغاله، فالنص ليس نصا في ذاته، بل هو نص في حدود إحالته الضمنية أو الصريحة على نصوص أخرى. وفي هذه الحالة، فإن التحقق النصي المفرد ليس سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى. لذا فهو لا يمكن أن يكون تعيينا لمعرفة معطاة بشكل نهائي، بل هو سلسلة من الإحالات، التي قد لا تنتهي، نظريا عند نقطة دلالية بعينها.

إلا أن منطق النص والبحث عن انسجام ممكن للكون النصي يقودان السميوز إلى انتقاء دلالة والاحتفاء بها وتفضيلها على دلالات أخرى. فالقول بأن النص يعالج هذا الموضوع أو ذاك لا يعني، قطعا، رد هذا الكون النصي إلى هذه الثيمة دون غيرها، إنه يشير فقط إلى إمكانية وجود انتقاء سياقي يقود الفعل التأويلي إلى تحيين مسار تأويلي بعينه، ويقوم في الآن نفسه بالدفع بمسارت أخرى إلى التراجع. فلهذا، فإن المؤول الديناميكي، وهو المؤول المسؤول عن انفلات الدلالة من عقالها وتطورها في كل الاتجاهات، لا يعين مستوى دلاليا واحدا، كما هو الحال مع المؤول المباشر أو النهائي، بل يحيل على مسارات تأويلية متعددة. فالسيرورة التدليلية، كما يتصورها بورس، ليست فعلا كليا، بل هي مستويات، والمستويات هي إحالات جزئية بالضرورة، تشير لحظة تحققها إلى وجود تحققات أخرى ممكنة.

وهذا ما يفسر، على سبيل المثال، ولع إمبيرتو إيكو - أحد أبرز من نبه جمهورالباحثين إلى المردودية التحليلية البالغة الغنى التي تشتمل عليها نظرية بورس - ب" الموسوعة " و" الانتقاء السياقي " و" السيناريوهات البينصية " و" الطوبيك " و" التناظر " و" القاموس الأساس" . . . ، [3] وهي كلها مفاهيم تحيل على تنسيب الدلالة والحد من غلواء التأويل وإدراجه ضمن شروط خاصة. فعلى خلاف بعض التفكيكيين الذين رأوا في بعض إشارات بورس إلى مبدأ " اللانهائية " باعتباره يحيل على تصور يرى في التأويل سيرورة لا تنتهي عند حد بعينه، نظر إيكو إلى السميوز وإلى كل المفاهيم المرتبطة بها باعتبارها مبدأ للتعددية لا باعتبارها تأويلا بلا نهاية. فالإحالة عنده، أي سيرورة السميوز، يجب أن تؤدي إلى إغناء نقطة الانطلاق لا إلى نفي أية صلة بها، فالمعرفة التي يستقر عليها التأويل، « بعد تطور كاف للفكر » (بورس)، هي إغناء للمعرفة التي شكلت نقطة انطلاق سيرورة التأويل. وهذا ما لم يدركه هؤلاء، فقد أوحى لهم مبدأ " اللانهائية " أن الأمر يتعلق بتأويل يستند إلى إحالات لا تحكمها أية غاية، وهذا أمر ينسجم تماما مع منطلقاتهم الفكرية. فالغاية عندهم من أي تأويل هي هذه الإحالات بالذات، فاللذة لا يمنحها مدلول تنتهي إليه القراءة بعد سلسلة من الإحالات، بل مصدرها هذه الإحالات ذاتها.

ولقد كانت هذه النظرة الصاحية حقا مدخلا لعقد مصالحة لم يكن يتوقعها أحد بين نظريات شديدة التباين في المنطلقات والأهداف والمفاهيم. وهكذا وجدنا أنفسنا ننتقل من مقترحات

(3) Umberto Eco: Lector in Fabula, éd Grasset 1985, pp 112 et suiv.

بورس لكي نشرح مفاهيم گريماص، ونرتكز في نفس الآن على مفاهيم جماليات التلقي من أجل استيعاب مفهوم السميوز ومردوديته وعلاقته بفعل القراءة. فبعدما كانت هذه النظريات تنطلق من تصورات تهدف إلى معالجة قضايا نصية ولدتها زاوية نظر بعينها، أصبح من الممكن النظر إلى هذه الزوايا في تكاملها. (4)

ولقد حاولنا عرض مجموع هذه القضايا من خلال الفصول الخمسة المكونة لهذا الكتاب. فقدمنا في الفصل الأول تصورا شاملا عن القضايا التي تثيرها نظرية المقولات باعتبارها هي الأساس الذي سينطلق منه بورس لصياغة مجموع تصوراته النظرية الخاصة بالسميائيات. فدون استيعاب هذا الأساس الفلسفي يصعب فهم الأبعاد الحقيقية للمقترحات النظرية التي يقدمها بورس في هذا الميدان. فهو لا يخفي أن السميائيات في تصوره جزء من المنطق، إن لم تكن مجرد اسم ثان له. ولهذا فالبناء الثلاثي الذي تتميز به العلامة عنده لا يمكن رده إلى رغبة في إضافة عنصر غائب في تصورات أخرى(سوسيرمثلا) أي المرجع، الذي يطلق عليه بورس الموضوع، بل مصدره مبدأ الثلاثية الذي يحكم إنتاج المعرفة وتداولها. فالإدراك لا يمكن أن يكون نتاج علاقة بين عنصرين، ورد التجربة الإنسانية إلى مبدأ ثنائي هو أمر مخل بنظام هذه التجربة، ولن يؤدي إلا إلى تحديد لحظي ليس له أية قيمة معرفية. ولهذا فإن

(4) انظر كتب إيكو الأخيرة :

-Lector in Fabula

-Les limites de l'interprétation

-Interpétation et surinterpétation

العلامة، وهي مبدأ أساس في تنظيم التجربة الإنسانية وفهم مضمونها، لا يمكن أن تكون إلا ثلاثية.

وهذا ما حاولنا توضيحه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. فلقد ناقشنا في هذا الفصل مسألة بناء العلامة في التصور السميائي الذي جاء به بورس. وفي هذا المجال، حددنا من جهة، مكونات العلامة، وقمنا بتعريف كل مكون على حدة، ثم ناقشنا، من جهة ثانية، بعض قضايا التأويل استنادا إلى مبدأين :

- المبدأ الأول هو مبدأ القصور التمثيلي للعلامة. فالعلامة تحتوي على معرفة مزدوجة : ما هو معطى من خلال التحيين المباشر، وما هو ضمني من خلال هذا التحيين ذاته. وهذه الإحالة المزدوجة هي ما يجعل من القراءة بحثا دائما عن علاقات غير مرئية من خلال التحقق.

- المبدأ الثاني، هو مبدأ السميوز اللامتناهية. فالمؤول ليس عنصرا في البناء العلامي فحسب، بل هو علامة أيضا، وباعتباره كذلك فإنه يحتاج إلي تمثيل جديد يقود إلى خلق علامة جديدة تولد مؤولا جديدا، وهكذا دواليك إلى ما لانهاية. فالمستويات الدلالية التي يشير إليها بورس من خلال تقسيماته الفرعية للمؤول ليست شيئا آخر سوى إشارة صريحة إلى الاحتفاء بتعددية دلالية مصدرها الطابع الناقص لكل فكر.

أما الفصل الثالث فقد خصصناه لمناقشة التوزيع الثلاثي للعلامة. وهنا أيضا كانت نظرية المقولات هي السند المعرفي الأساس الذي ارتكز عليه بورس من أجل خلق سلسلة من التنويعات

الخاصة بالعلامة. فكل عنصر من عناصر العلامة قد يتوزع على علامات ثلاث، وكل علامة مرتبطة، وهذا هو الأساس، بأثر معنوي بعينه، أو بحكم منطقي خاص. وهذا التوزيع يعد، في تصور بورس، استعادة لمجموعة من الظواهر التي قد لا يستطيع فعل العلامة في شكله العام استيعابها.

أما في الفصل الرابع فقد حاولنا إثارة مجموعة من القضايا الخاصة بالتأويل كما تظهر من خلال بعض قضايا المؤول. فعلى عكس القائلين بأن العلامة لا يمكن أن تستقر على حال من خلال سلسلة الإحالات التي يتحدث عنها بورس، فإننا حاولنا إثبات أن هذه الحركية تعد إسهاما مميزا لنظرية بورس في مجال التأويل. فاللغة نسق يوضح نفسه بنفسه، والمعنى لا يوجد خارج هذه اللغة، إنه موجود من خلال الإحالات وليس مودعا في محفل متعال لا يدرك سره إلا الله.

وناقشنا في الفصل الخامس، من نفس المنطلقات، أي التأويل وقواعده، قضية القراءة والسميوز وموقع محفل التلقي في تصورات بورس. فبورس يصرح، دون مواربة، أن التأويل ممكن حتى وإن غاب الشخص المؤول، فالمؤول (interprétant) ليس في حاجة إلى شخص يقوم بالتأويل. من هذه الزاوية حاولنا أن نربط، انطلاقا من مقترحات إيكو، بين الطابع اللامتناهي للسميوز وبين الطوبيك (ويدل عند إيكو على فرضية سابقة للقراءة). فلا جدال في أن السميوز لا متناهية بحكم طبيعة الفكر الإنساني ذاته وبحكم تعدد حاجات الإنسان وتنوعها، لكنها نهائية في كل واقعة خطابية

مخصوصة. والواقعة الخطابية تستدعي، كضرورة لإنتاج الدلالات، محفلا للتلقي، وهذا المحفل يستند في قراءاته إلى أسئلة مسبقة توجه القراءة نحو غايات دلالية بعينها.

وفي هذه النقطة كانت خلاصتنا أنه لا وجود لقراءة شاملة تستوعب، من خلال مسار تأويلي واحد، مجمل المعطيات الدلالية التي يحيل عليها النص. إن التأويل انتقاء لمسارتأويلي، وهذا الانتقاء هو وليد الطوبيك، أي وليد الفرضيات الأولى الموجهة للقراءة.

وننبه القارئ غيرالمتخصص إلى أنه بإمكانه أن يقفز على الفصل الأول، ويباشر القراءة انطلاقا من الفصل الثاني. وسيكون بإمكانه العودة من جديد إلى قراءة الفصل الأول. فلهذا الفصل أهمية قصوى في فهم نظرية بورس السميائية إلا أنه يتميز، كما هي مجموع كتابات بورس، بنوع من التعقيد والتركيب، ويستدعي استحضار مرجعات فكرية متنوعة لفهم المقاصد العميقة لكل مقترح نظري.

وفي ختام هذه المقدمة نشير إلى أن عملنا هذا يندرج ضمن المجهودات التي قدمها ويقدمها الباحثون المغاربة من أجل استنبات وتأصيل هذه الرؤية التحليلية داخل الثقافة العربية، نذكر من هؤلاء، وهم كثيرون، الأستاذ محمد مفتاح (كتاباته معروفة حول التأويل والقراءات السيميائية للنصوص) والأستاذ حنون مبارك (كان من الأوائل الذين عرفوا ببورس في الثقافة العربية)، وعبد المجيد نوسي.

الفصل الأول

نظرية المقولات

السيرورة الثلاثية

لسنا في حاجة إلى تقديم مسهب لكي نثبت للقارئ أن استيعاب التصور البورسي للعلامة يمر عبر استيعاب تصوره لنظرية المقولات. إذ لا يشكل التعريف الذي يقدمه بورس للعلامة سوى الوجه المرئي لقاعدة فلسفية ترى في التجربة الإنسانية كلها كيانا منظما من خلال مقولات ثلاث هي الأصل والمنطلق في إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها. فلا حدود تفصل في الظواهر بين المرئي والمستتر، بين الممكن والمتحقق، فكل ما يؤثث هذ الكون يشكل وحدة تامة. ومع ذلك فإن التنظيم المفهومي للتجربة الإنسانية يقتضي منا الفصل بين المستويات والمظاهر والمجالات.

فما ينتمي إلى العلامة باعتبارها صيغة تنظيمية مباشرة للتجربة الإنسانية، وما ينتمي إلى المقولات باعتبارها تشكل الروابط الأولية التي تجمع بين مكونات التجربة الإنسانية (أشكال الوجود)، يعود إلى نفس المبدأ: التخلص من المعطيات الحسية باعتبارها كيانات جوفاء لا يمكن أن تنتج معرفة، وذلك من أجل صبها داخل قوالب

الوجود والمفاهيم. فنحن لا ندرك العالم بشكل مباشر، ولا يمكن أن نقول عنه أي شيء في غياب أداة التوسط التي هي العلامات، أي في غياب الثالثانية، إحدى المقولات الرئيسة كما سنرى ذلك لاحقا. فلا وجود لفكر بدون علامات، ولا يمكن أن نفكر خارج ما تقدمه هذه العلامات.

ولقد قدم بورس تصوره من خلال خطاطة ثلاثية يمكن بواسطتها الكشف عن مجمل مكونات التجربة الإنسانية. وكل شيء كان في تصوره ثلاثيا. إن مبدأ الثلاثية هو المبدأ الأساس الذي سيشكل عمق السيرورة المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني، سواء تعلق الأمر بالمقولات أو تعلق بالبناء الداخلي للعلامة، أو تعلق بما سيسميه لاحقا التوزيع الثلاثي للعلامة. ففي كل هذه الحالات، تنطلق الثلاثية من النوعية (أول) إلى الفعل (ثان) وإلى القانون (ثالث)، أي من الإحساس إلى الوجود إلى التوسط. وهي السيرورة المؤدية إلى تحديد إدراك عقلي للكون يستند إلى المفاهيم لا إلى المعطيات الحسية المعزولة.

وسيبني بورس تصوره انطلاقا من «مسلمة يُطلق عليها "البروتوكول الرياضي"، ووفق هذا البروتوكول يتحدد كل نسق باعتباره كيانا ثلاثيا ولا يمكن أن يكون إلا ثلاثيا»(1). إن هذا البروتوكول يعد أداة منطقية فعالة للقيام بكل عمليات تصنيف الظواهر، وهو ما يعني أن كل شي وكل فعل وكل عدد يختصر في الرقم ثلاثة.

(1) Joelle Réthoré : La Sémiotique phanéroscopique de C S Peirce , Langages n 58, p 32.

وهكذا، فإن كل الظواهر، وفق هذا البروتوكول، تَمْثل أمامنا على شكل بناء ثلاثي يستحيل اختصاره في ثنائية ستكون بطبيعتها مخلة بالنسق. فنحن لا يمكن أن نتصور العدد "1" دون أن نسقط في نفس الآن ما يحد من امتداده المحتمل (ما يغلق السلسلة)، ولهذا فإن وجود العدد "2" أمر لا بد منه، فهو الذي يحد من الامتداد ويمنحه هوية "2". إلا أن الأمر لا يمكن أن يقف عند هذه الحدود، فتصور كيانين مستقلين ومكتفيين بذاتهما (ما يعود إلى الوحدة "1" وما ينتمي إلى الثنائية "2") يفترض ثالثا يربط بينهما، ولا يمكن لهذا الثالث أن يكون من طبيعة الأول، كما لا يمكن أن يكون من طبيعة الثاني، إنه ينتمي إلى دائرة مختلفة، إنه التوسط الذي يؤلف ويصنف ويجرد، إنه العدد "3". « فالثلاثية ضرورية وكافية في الآن نفسه. إنها ضرورية من الناحية المنطقية وكافية من الناحية التداولية. إنها ضرورية من أجل بناء سلسلة لامتناهية من العلاقات، وكافية لأنها تستجيب للحاجات الاقتصادية من خلال التقليص الممكن لكل عدد يفوق العدد "3" إلى تأليفات ثلاثية ». [2].

ويتساءل بورس: « لماذا التوقف عند ثلاثة؟ لماذا لا يمكن الاستمرار من أجل الحصول على تصور جديد من خلال "4" أو "5" الخ؟ إن السبب يعود إلى أنه يستحيل أن نكون ثلاثة أصيلة بإدخال تغيير على الزوج دون أن ندخل شيئا من طبيعة مختلفة عن الوحدة وعن الزوج. فـ "4" أو "5" أو أي عدد يفوق ذلك يمكن الحصول عليه من خلال تأليف بسيط لثلاثة. ومن أجل المزيد من الإيضاح، سأبين ذلك من خلال المثال التالي: إن العملية التالية

(2) نفسه ص 32.

" أ " يهب " ب " هدية لـ " ج " تحيل على علاقة ثلاثية، وباعتبارها كذلك، يستحيل العودة بها إلى تأليف ثنائي. والواقع أن فكرة التأليف ذاتها تستدعي فكرة الثلاثية، ذلك أن التأليف هو شيء لا يكون كذلك إلا من خلال الأجزاء التي يربط بينها. وحتى إذا تركنا هذا الاعتبار جانبا، فإننا لا يمكن أن نقول إن كون " أ " يهب " ج " لـ " ب " من خلال الجمع بينهما في علاقات ثنائية " أ " و " ب "، و " ب " و " ج " و " ج " و " أ ". ف " أ " قد يجعل من " ب " رجلا غنيا، و " ب " يمكن أن يتوصل بـ " ج " و " أ " ينفصل " عن " ج " دون أن يكون " أ " مضطرا لمنح " ج " لـ " ب ". وفي هذه الحالة لا يجب أن تكون هذه العلاقات الثنائية الثلاث في حالة تعايش فحسب، بل يجب أن تدرك باعتبارها تشكل واقعة واحدة. وهكذا يتضح أننا لا يمكن أن نحلل الثلاثيات من خلال الثنائيات. »(3)

ولننظر إلى المسألة من خلال مثال أقل تجريدية من السابق. ويتعلق الأمر بنص سردي يفتتح بالملفوظ التالي:

« لم يكن عيسى يتوقع أن هذا اليوم سيأتي »

إن هذا الملفوظ يضعنا أمام وضعية بدئية مفتوحة على كل الاحتمالات. فهذه الوضعية السردية قابلة لاستيعاب كل الممكنات التي يشير إليها الملفوظ. فقد يتعلق الأمر، على سبيل المثال بالتحققات التالية، لم يكن يتصور:

- أنه سيغادر مدينته.

---

(3) انظر Peirce: Textes anticartésiens , présentation et traduction Joseph Chenu, éd Aubier, 1984 , p6o et suiv

- أنه سيجد عملا .
- أنه سيتزوج .
- أن تقوم الثورة في بلاده .
- أن يعتقل .

إلى ما إلى ذلك من الممكنات القابلة للتحقق والتي تقبل بها العوالم الممكنة المرتبطة بهذا الوضع الإنساني ضمن شروط بعينها .

إن السلسلة إذن مفتوحة ، إلا أن أي تحقق لممكن من الممكنات السابقة سيقوم بإغلاق السلسلة ، أي يوقف أي تساؤل يخص الملفوظ المشار إليه . إلا أن هذا التحقق يعني في نفس الآن إدخال قانون ستتحقق وفقه الأحداث ويتحدد مضمونها وطريقة تحققها . فأن يسافر عيسى فذاك أمر سيفرض تحققا بعينه ، لا يمكن أن يفرضه الزواج أو الثورة أو الحصول على وظيفة . وهكذا نلاحظ أن التجربة في رمتها تختصر في ثلاثة عناصر :

- إمكان (ما تشير إليه الوضعية البدئية ، أي ما يقوله السارد) ،
- ثم التحقق الذي يليه (انتقاء ممكن من الممكنات المشار إليها) ،
- ثم القانون الذي سيتحكم في الأحداث استقبالا ، وهو قانون منبثق عن الاختيار الذي سيقوم به السارد من أجل توجيه العجلة السردية في اتجاه بعينه .

وكما يتضح ذلك من هذا المثال ، فإن إضافة عنصر رابع لا أهمية له داخل هذه السيرورة ، فهو لن يغير من الترابط الذي يجمع

بين الحلقات الثلاث المشكلة للسيرورة. فأن يسافر بالطائرة أو عن طريق البحر، أو أن يجد عملا في البريد أو في التعليم، أو أن يتزوج عاملة أو معلمة فتلك عناصر لن تغير من طبيعة التحقق ذاته، ولن تغير من طبيعة القانون الذي يحكم عناصر التحقق استقبالا. صحيح قد تؤدي هذه العناصر إلى تنويعات تغني التحقق وأساليبه، ولكنها بالتأكيد لن تمس جوهر الترابط الذي يميز كل سيرورة إدراكية.

وما يصدق على واقعة بحجم هذا الملفوظ يصدق على الوعي الإنساني برمته. فالتجربة الإنسانية هي كما هي في حدود انبثاقها عن هذه السيرورة الثلاثية، وخضوعها لمقتضياتها. فالمقولات، كما سنرى لاحقا، ليست مضامين مسبقة ومكتفية بذاتها، بل هي أشكال نقيس من خلالها مظاهر التجربة الإنسانية.

وسيعيد بورس صياغة هذا البروتوكول الرياضي من خلال حدود فينومونولوجية دقيقة خاصة بالإدراك وإنتاج الأفكار وتداولها. فكل عدد من الأعداد السابقة يمكن أن يعبر عنه من خلال مقولة تحيل على نمط خاص في الوجود :

- وجود الإمكان النوعي الموضوعي.
- وجود الواقعة الفعلية.
- وجود القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا.

ولهذا فإن بورس كان يطلق على هذه المقولات في مرحلة سابقة أي في مرحلة الستينات والسبعينات : النوعية والواقعة والعلاقة. فالنوعية إحالة على الأول، والواقعة هو لحظة تجسيد

المعطيات الموصوفة في الأول ، أما العلاقة فهي الثالث الذي يربط مفهوميا بين الأول والثاني ، أي بين الأحاسيس والنوعيات وصورتها المجسدة في واقعة بعينها. إلا أنه سيغير من هذه المصطلحية في الثمانينات وسيتحدث عن النوعية والعلاقة والتوسط. ولن يتبنى استعمال المصطلحات الأولانية والثانيانية إلا في مرحلة متأخرة (حوالي 1885). [4]

وبعبارة أخرى، إننا أمام تصور يجعل من الأول مرتبطا بالكينونة، وهو ما يعني التعبير عن الموجود في ذاته وفي استقلال عن أي شيء آخر، ويجعل من الثاني معبرا عن الكينونة في علاقتها بشيء آخر. في حين يعهد للثالث القيام بمهمة التوسط الذي يربط الأول بالثاني ضمن علاقة تشير إلى القانون والضرورة والفكر. فبدون ثالث لا يمكن تصور أي شيء، ذلك أن غياب الثالث معناه أننا سنكون أمام إحالة عرضية وهشة وزائلة لا يمكن أن تنتج إدراكا أو معرفة. فالإحالة على كائن بشري من خلال الأول والثاني فقط، معناه الإحالة على كائن بلا ذاكرة ولا تاريخ ولا مستقبل، إنه لحظي، مثله في ذلك مثل الحيوانات التي تكتفي بإدراك الأشياء في اللحظة في انفصال عن الزمن الماضي أو الآتي.

إن وجود الإمكان يعبر عنه من خلال مقولة الأولانية (priméité)، ويعبر عن الوجود الفعلي من خلال مقولة الثانيانية (secondéité)، أما الثالثانية (tierceité) فهي التعبير الكلي عن الوجود الثالث، أي عما يشير إلى القانون والضرورة.

(4) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe p 78 .

ويؤكد بورس أن هذه المقولات قادرة على تزويدنا بكل الوسائل الممكنة للإمساك بالتجربة الإنسانية في كليتها. بل يمكن القول إن التجربة الإنسانية في تشعبها وتنوعها وغناها لا يمكن أن تدرك إلا باعتبارها تداخلا لمستويات ثلاثة هي ما تعبر عنها المقولات السابقة. وبعبارة أخرى، فإن هذه التجربة تدرك باعتبارها نتاجا لمستويات ثلاثة : أول وثان وثالث، أي التجربة في حالة الإمكان، والتجربة المجسدة في وقائع، والتجربة حين يتم استيعابها بصفتها قانونا وفكرا وضرورة. وكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة يحدد كونا له قوانينه الخاصة التي تحكمه وتحكم علاقته بالعناصر الأخرى. فلا وجود للعنصر خارج الوحدة التي تجمع هذه العناصر. وبعبارة أخرى فإن المقولات تمكننا من رد الكون المتنافر التكوين إلى ضرب من الوحدة، وهذه العملية وحدها هي التي تمكننا من الإمساك ثانية بالشيء باعتبار انتمائه إلى هذا القسم أو ذاك من الأشياء.

وعلى هذا الأساس، فإن الصياغة النهائية للحدود الإدراكية، لا يمكنها أن تقف عند ما يقدمه الأول وحده أو ما يتجسد في الثاني وحده، كما لا يمكن تصور ثالث بدون أول ينسج علاقة مع ثان. إن الأول إمكان فقط، أما الثاني فهو وجود خالص والربط بينهما لا يمكن أن يؤدي إلى إنتاج إدراك أو خلق تواصل دائم. إن الإدراك والتواصل ممكنان فقط من خلال إدخال عنصر ثالث يحول العلاقة بين الأول والثاني من الطبيعة العرضية واللحظية إلى ما يشد هذه العناصر إلى بعضها البعض من خلال قانون لا فكاك منه.

ويحدد الأول والثاني والثالث المقولات الثلاث السابقة التي يطلق عليها بورس المقولات الفينومينولوجية، أو المقولات الفانوروسكوبية و«الفانوروسكوبيا هي وصف للظاهر(phaneron)، والظاهر هو المجموع الجماعي الحاضر في الذهن بأية صفة وبأية طريقة دون الاهتمام بتطابقه أوعدم تطابقه مع شيء واقعي» (5). إنه المعطى المباشر والعفوي. ولأن إدراك الذات للعالم الخارجي ليس إدراكا عفويا وبسيطا يتم دون وسائط، فإن موجودات العالم الخارجي تتسلل إلى ذهن الذات المدركة من خلال سيرورة تشتمل، في نظر بورس، على لحظات ثلاث: «لحظة أولى خالية من أي قصدية فينومينولوجية، لأن خاصية الشعور أو المحسوس التي يتحقق من خلالها " الشعور البسيط " ليست موضوعية ولا ذاتية، لا فاعلة ولا منفعلة، وبطبيعة الحال فهي ليست قصدية». وبما أن هذه الحالة الأولى هي من باب الاحتمال فقط - فهي لا يمكن أن تدرك في ذاتها بشكل مطلق - فإنها في ارتباطها بذات ما، «تستجيب لحضورها الخالص (ما يسميه دان سكوت ب " الهنا والآن "). وبطبيعة الحال، فإن الأمر لا يتعلق هنا بقصدية ما، فالمحسوس موجود هنا لأنه موجود فقط. إنه موجود في نظر العارف لا أقل ولا أكثر». (6)

إن الحالة الثالثة وحدها هي التي تحتوي على قصدية، لأنها وحدها تتميز بعمومية مستقلة تجعل منها كيانا يراقب الإمكان

(5) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil, Paris 1978 p 67

(6) Deledalle (Gérard): La philosophie Americaine, éd, Nouveaux horizons, 1978, p 38

والتحقق معا. وبعبارة أخرى، وكما سنرى ذلك لاحقا بتفصيل، فإن الثالثانية هي ما يجعل من المحسوس مدركا إدراكا مفهوميا، ففي غياب المفهوم يستحيل الحديث عن " فهم" أي شيء. ولعل هذا ما يفسر اهتمام بورس الكبير بالعلامة وتكونها ودورها في إنتاج الأفكار وتداولها.

والظاهر أن بورس، كما يبدو من خلال الإشارت الخاصة إلى " المفاهيم " و" المعطى الحسوس" و" الموجود"، قد استوحى الكثير من تصوراته، في مجال الإدراك القائم على المقولات القبلية على الأقل، من المقترحات الفلسفية التي جاء بها كانط.

إن كانط أيضا، وفق هذا التصور، كان يرفض بشكل قطعي أي حدس عقلي، فالفكر عنده لا يمكن أن يتبلور ويظهر للوجود إلا إذا تم من خلال مقولات (تصورات في المقال السابق). والشاهد على ذلك وجود سلسلة المقولات التي نظر إليه كانط باعتبارها كيانات قبلية نعقل عبرها المعطى الحدسي، أي النظر إليها باعتبارها مبادئ للفهم الخالص، أي «تلك المبادئ الأولية التي تحدد إمكانية التجربة وتجعل منها معرفة تجريبية موضوعية». (7) ففي غياب هذه المقولات « ستظل الحدوس الحسية " عمياء، وفي غياب الحدوس الحسية لن تكون المفاهيم سوى كيانات عمياء» (8).

وبورس نفسه في النصوص التأسيسة الأولى (النصوص التي ظهرت سنوات 1866- - 1867 - 1868) كان يستعمل مجموعة من

(7) زكريا ابراهيم : كانط أو الفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة، ص 62
(8) نفسه

المفاهيم القريبة جدا من تلك التي شاع استعمالها عند كانط. وعلى سبيل المثال، فإنه يفتتح مقالته الشهيرة: حول لائحة جديدة من المقولات التي كتبها سنة 1867 وكان عمره آنذاك 28 سنة بالعبارات التالية: «إن هذه المقالة تستند إلى نظرية قائمة الذات تتحدد وفقها وظيفة التصورات (conceptions) في رد الانطباعات المحسوسة إلى ضرب من الوحدة. فصلاحية هذه التصورات تكمن، وفق هذه النظرية، في أن إرجاع مضمون الوعي إلى ضرب من الوحدة لا يمكن أن يتم دون الاستناد إلى هذه التصورات». [9] إن هذه الصيغة هي استعادة واضحة لمفاهيم كانطية خاصة بالإدراك وإنتاج المعرفة. فلقد استعمل كلمة "التصورات" التي كانت تعني عنده المقولات.

إلا أن التشابه يقف عند هذا الحد ولا يمكن أن يتجاوزه إلى أبعد من تحديد مجموعة من المقولات تقف وظيفتها عند حدود إنتاج معرفة عقلية. فمقولات كانط مرتبطة بسلسلة من الأحكام المؤدية إلى إنتاج إدراك حقيقي، تماما كما كانت مقولات أرسطو مرتبطة بتحديد الكينونة.

فبينما استعان أرسطو بهذه المقولات من أجل الوصول إلى تحديد جوهر الكينونة، واستعان كانط بمقولاته المنبثقة عن الأحكام لكي يصل إلى فصل المحسوس عن الفكر، (تمييزه بين الأحكام التحليلية السابقة عن التجربة والأحكام التركيبية المنبثقة عن التجربة)[10]، فإن بورس انطلق من نفس الإشكال الإدراكي، إلا أنه

---

(9) C S Peirce : Textes fondamentaux de Sémiotique , tra Berthe Fouchier-Axelsen et Clara Foz, éd Méridiens Klincksieck , 1987.

(10) *Kant : Critique de la raison pure, éd Flammarion, 1978, p 63 et suiv*

لم ير في " مقولاته " سوى أشكال تشير إلى كيانات وجودية مرتبطة فيما بينها وخالقة للوعي في كليته. فالتركيب لا يمكن أن يتم، كما تصور ذلك كانط، من خلال الحدس. « فالسؤال الشهير الذي طرحه كانط في نهاية القرن الثامن عشر عن كيفية الحصول على تفكير تركيبي قبلي، كان يجب، في تصور بورس، أن يكون مسبوقا بسؤال آخر أكثر أهمية : كيف يمكن الحديث عن التركيب ذاته ؟ وكيف يمكن رد التعدد إلى ضرب من الوحدة ؟ وعن هذا السؤال يجيب بورس : إن ذلك ممكن فقط من خلال التمثيل. فالكينونة معناها ما يمكن تمثيله، والتمثيل في تصور بورس تتابع منظم »(11).

ولهذا كان من الضروري الاستعانة بأدوات أخرى، وكان من الضروري أيضا إعادة صياغة الأحكام الخاصة بالتجربة وحدودها. وسيعثر بورس على هذه الأدوات في النموذج الذي يقدمه منطق العلاقات الذي قام هو نفسه بإعادة صياغة حدوده. « فالوحدة التي تعود إليها الانطباعات من خلال الإدراك هي وحدة القضية ». (12)

وفي هذا المجال، فإن منطق العلاقات يميز داخل القضية بين علاقة أحادية : " . . . . هو رجل " ، وبين علاقة ثنائية : " . . . يحب . . . ، " وبين علاقة ثلاثية : " . . . يعطي . . . . ل . . . . . . " . « وعن هذا البناء المنطقي انبثقت مقولات بورس الفينومينولوجية الثلاث. » فالأولانية هي مقولة النوعية التي تتميز بكونها تمتلك عمومية الممكن، والثانيانية هي مقولة الوجود، وهي

---

(11) Savan (David) : La Sémiotique de Peirce , Langages 58 p 10 - 11

(12) Deledalle (Gérard): Théorie et pratique du signe, éd Payot, 1979, p 34 - 35

الفعل الذي يتم داخل خصوصية الهنا والآن، أما الثالثانية فهي مقولة الفكر والتوسط ». [13] ففي الحالة الأولى تكتفي الإحالة بتحديد كيان منفصل عن أي شيء، فهذا الكيان محدد من خلال خصائصه الذاتية فقط، فهو منفصل عن أي شيء آخر. أما في الحالة الثانية، فالإحالة تتم من خلال ربط الذات بموضوعها، أو ربط الذات بالمحمول، فالشيء لا يتحدد من خلال خصائصه الذاتية، بل بتحققه في شيء آخر، فهو كما هو في علاقته بشيء يحيط به. أما في الحالة الثالثة، فإن الإحالة تستند في وجودها إلى إبراز ما يتوسط كيانين.

واستنادا إلى هذا يمكن فهم البناء الثلاثي للعلامة نفسها. فبورس لا يتصور العلامة خارج هذه التحديدات المنطقية. «فالعلامة هي أول عندما تحيل على نفسها، وهي ثان عندما تحيل على بؤرة "الهنا والآن" التي يتحرك داخلها الموضوع، وهي ثالث عندما تحيل على مؤولها». [14] وهذا أمر طبيعي، فالمنطق عند بورس ليس سوى تسمية أخرى للسميائيات التي تشكل في اعتقاده النظرية الشكلية والضرورية لدراسة العلامات.

تعريف المقولات

إن المقولات الثلاث تحدد، كما أسلفنا، ثلاثة أنماط للوجود: «وجود الإمكان النوعي الموضوعي، ووجود الواقعة الفعلية، ووجود القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا»[15].

(13) نفسه ص 35

(14) نفسه ص 35

(15) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , p 69

وبطبيعة الحال، فإن الأمر لا يتعلق بأكوان منفصلة عن بعضها البعض لكل منها وجوده المستقل، بل الأمر يعود إلى كون واحد منظور إليه من زوايا ثلاث. فكل زاوية تمنح هذا الكون مظهرا خاصا. فمن خلال الأول يتبدى الوجود باعتباره نوعيات وأحاسيس، أما في الثاني فيتخذ شكل مجموعة من الوقائع المتحققة فعليا، أما مع الثالث، فإن الوجود يتحول إلى سلسلة من القوانين والقواعد، أي يصبح مجموعة من المفاهيم التي من خلالها نعقل الكون ونتمثله كفكر وضرورة وقانون.

فما فحوى هذه المقولات ؟ وما هي العلاقات الرابطة بينها ؟ وكيف تتحول هذه المفاهيم إلى أدوات لاشتغال العقل وإنتاج الأحكام والمفاهيم ؟

الأولانية

تحيل الأولانية في تصور بورس على " الوجود النوعي الموضوعي " ، ذلك الوجود الذي يكمن في وجود الشيء في ذاته خارج أي سياق أو تحقق. وبعبارة أخرى، فإن الأولانية تحيل على سلسلة من الأحاسيس والنوعيات المنظور إليها في ذاتها. إنها تحديد للكينونة في طابعها المباشر دون وسائط أو تجسد أو علاقة مع أي شيء آخر. ويعرفها بورس بأنها « نمط في الوجود يتحدد في كون شيء ما هو كما هو إيجابيا دون اعتبار لشيء آخر. ولا يمكن أن يكون هذا الشيء إلا إمكانا » (16). فالأول في هذه الحالة يحيل على الشيء في ذاته، مفصولا عن محيطه وعن سياقه المباشر وغير

(16) Peirce (C S): Ecrits sur le signe, p . 70

المباشر. ويرد بورس مضمون هذه المقولة إلى الأحاسيس كالألم والخوف والفرح والحزن، وإلى النوعيات كالأحمر والأخضر والمر والخشن واللين.

فهذه الأحاسيس وهذه النوعيات هي كما هي في ذاتها بعيدا عن أي تحقق ولا تتحدد إلا من خلال خصائصها الذاتية دون التساؤل عن تجسدها أوعدم تجسدها في شيء آخر. « فالإحساس هو نوع من الوعي الذي لا يستدعي أي تحليل، كما لا يستدعي أية مقارنة ولا أية سيرورة، كما لا يتجسد لا كليا ولا جزئيا في فعل يتميزمن خلاله هذا الحقل من الوعي أوذاك». (17)

فما هي النوعية وما هو مضمونها؟ عن هذا السؤال يجيب بورس «هناك نظرة يبدو من خلالها عالم الظواهر وكأنه مصنوع فقط من النوعيات. وما هي هذه النظرة ؟ إنها تلك التي نعتنقها عندما نهتم بكل عنصر كما يبدو في ذاته، ومن خلال إمكانياته الخاصة دونما اهتمام بأية روابط أخرى» (18). فإذا تأملنا أي شيء في ذاته وفي انفصال تام عن أي شيء آخر سيتضح لنا أن هذا الشيء لا يمكن أن يشبه أي شيء آخر. فالإحساس هو كما هو قبل أن نفكر في صبه في واقعة أو نجسده في فعل يكشف عن كامل أوجهه. ولهذا فإن بورس يرى في النوعية « العنصر الأحادي للكون. فكل شيء مهما كان تعقيده وتنافره يمتلك نوعيته الأصلية » (19)

---

(17) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , p . 84

(18) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , p . 91

(19) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , p . 92

وعلى هذا الأساس تتحدد الأولانية كمقولة للوجود الاحتمالي، ولا يمكن أن تشتغل إلا باعتبارها ما يحيل على الاحتمال والإمكان. فتجسدها في شيء آخر غير ذاتها يحيلنا على شيء آخر، أي على نمط آخر للوجود هو بالضرورة تجاوز لحدودها ومعطياتها.

إن الأولانية تتميز بالعمومية، ولهذا فإن الإبهام والغموض والالتباس سمات خاصة بها، فهي الكلية التي لا تحضر في الذهن من خلال أجزائها لا من خلال مظاهرها، إنها الأحاسيس خارج أي تجسد، وهي النوعيات في انفصال عن الوقائع التي تخبر عنها وتمنحها هوية.

إن الأولانية مقولة توجد خارج أي تحديد، فلا زمان هناك ولا مكان ولا تمييز ولا تخوم ولا أجزاء. «فكل شيء يمكن أن يعزل ويطرح كأول داخل سلسلة. . .] والأول معناه بداية جديدة وأصل، فلا شيء يحدد الأول بشكل مسبق، فلنفترض أن (5) هي أول فماذا سيكون الثاني؟ إنه غير محدد بعد؛ قد يكون (6) وقد يكون (4) وقد يكون (10) أوما شئتم، فالأول حر ولا محدد. إن الأولانية هي مقولة البداية والجدة والحرية والإمكان واللاتحديد»[20].

إن الأولانية هي الإحساس قبل أن تكون هناك ذات تحس، وهي النوعيات قبل أن يكون هناك شيء تتجسد من خلاله هذه النوعيات. «فمادامت الأشياء لا تؤثر في بعضها البعض فلا فائدة من القول إنها موجودة، إلا إذا كان هذا القول يعني أنها موجودة

Savan (David): La Sémiotique de Peirce, Langages 58 p. 11 (20)

لذاتها»[21]. إنها الاحتمال فحسب، والاحتمال نمط في الوجود لا يرتبط بحالة ولا يعود إلى واقعة بعينها، بل يشير إلى الانفتاح الدائم على أشكال للتحقق أو على خيبات لا تنتهي. فهل بإمكاننا أن نصف الأحمر؟ وهل يمكن أن نحدد كنه السعادة والفرح والألم؟ إن الأحمر في ذاته لا يمكن أن يوصف، فقبل أن يكون هناك شيء أحمر، لم يكن الأحمر سوى نوعية لا وجود لها إلا في ذاتها، » فالنوعية ليست مرتبطة في كينونتها بكائن ما، سواء مَثُل ذلك على شكل معنى أو على شكل فكر. وهي أيضا ليست شيئا مرتبطا في كينونته بشيء مادي يمتلكه. وأن تكون النوعية مرتبطة بالمعنى فذاك هو الخطأ الذي ارتكبه المفهوميون، وأن ترد إلى الذات التي تتحقق من خلالها فذاك هو خطأ الإسمانيين.

إن النوعية هي إمكان مجرد. وخطأ الدراستين السابقتين يكمن في اعتقادهما أن المحتمل والكامن لا يمكن أن يوجد إلا من خلال واقعة تجسده »[22]. لذا يحق لنا القول إن » النوعية خالدة ومستقلة عن الزمان وعن كل أشكال التحقق».[23] وهو أمر يصدق أيضا على أحاسيس كالفرح والسعادة والألم والغضب، فتلك أحاسيس عامة لا قيمة لها خارج خصائصها الذاتية. « فالإحساس يجب أن يكون متطابقا مع نسخة من نفسه، والأمر يتعلق بطريقة أخرى للقول إن كل إحساس هو نوعية للوعي المباشر. »[24]

---

(21) Peirce (C S): Ecrits sur le signe ,p . 70

(22) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , p . 89

(23) Peirce (C S): Ecrits sur le signe
والكلام لودولودال في التعليق الذي خص به هذه الكتابات ص 207.

(24) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 p . 85

ويعتقد دولودال أن الأولانية شبيهة بـ " العاطفة البسيطة " التي قال بها مان دو بيران، ورغم ذلك فإن دولودال يلاحظ أن الفرق شاسع بينهما. فما كان يشغل بال دوبيران هو تحديد طبيعة الأنا، في حين كان بورس منشغلا بتحديد طبيعة الظاهر. (25) فبورس لا يكترث للذات التي تقوم بالتجسيد، فما هو أساس هوالتجسيد ذاته. تماما كما هو الشأن مع تصوره للمؤول، فالتأويل ممكن حتى وإن غابت الذات التي تقوم بعملية التأويل.

هذا السبب، فإن المعطيات الموصوفة داخل الأولانية - بحكم احتماليتها - قد تتحقق وقد لا تتحقق، وقد تتجسد في واقعة ما وقد تظل احتمالا إلى ما لا نهاية، فهي قابلة لأن تستمر في الحياة باعتبارها مجرد إمكان يشير إلى إمكانية للتحقق. إن هذا لا يمس جوهرها ولا يغير من كنهها. إنها تذكرنا بالمتخيل الذي يرفض أن ينحني لقوانين الزمان والمكان، فهو منفلت من الجاذبية ومن إمكانية الغرق، لذلك فإن الكائن " يطير ويمشي على الماء بقدميه ويكبر ويشيخ ثم يعود صبيا " . وقد تقوم الثالثانية بقتله، إلا أنه قد يبعث من رماده كي يغزو الثانيانية من جديد ويغنيها. (26) ويلاحظ بورس أننا

---

(25) Peirce (C S): Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 .
انظر التعليق الذي خص به هذه الكتابات ص 206

(26) لقد قامت نيكول إفرات دسمنت بدراسة عقدت من خلالها مقارنة بين المقولات الثلاث، وبين المتخيل الواقعي والرمزي. واعتبرت بموجبها أن تلك المقولات هي صياغة جديدة للعناصر الثلاثة المشار إليها .
انظر: Evereart - Desmedt (Nicole): *Le processus interprétatif* Intoduction à la sémiotique de C. S. Peirce, Ed Mardagua 1990 .
الفصل الرابع . لقد قدمنا ترجمة عربية لهذا المقال في : علامات (المغرب) العدد الثالث، سنة 1995 .

«نعيش في عالمين : عالم الوقائع وعالم المتخيل (. . .) ونطلق على العالم المتخيل العالم الداخلي، أما عالم الوقائع فنطلق عليه العالم الخارجي »(27)

إن الأولانية مقولة عامة، إلا أن عموميتها، كما سنرى في الفقرة الموالية، ليست من طبيعة قانونية فكرية كما هو الشأن مع الثالثانية، بل هي من طبيعة الهلامي والسديمي الذي لا يتحدد من خلال أجزائه المكونة. فالمتصل لا يمكن أن يكون كيانا متحققا، إلا أنه قد يغذي كل أشكال التحقق الممكنة. لذلك فإن فكرة الأول المطلق ترتكز على أساس معرفي يقول بأننا لا يمكن أن نفكر في هذا الأول من خلال أجزائه.

وإذا غادرنا الظواهر الطبيعية وعدنا إلى اللسان مجسدا في سلسلة لامتناهية من الكلمات وأخذنا كلمة "سيارة" كمثال وحاولنا الاهتمام بهذه الكلمة في ذاتها (دون الاهتمام بما تحيل عليه، ولا على ماذا تدل)، أي باعتبارها متوالية صوتية تجمع، توزيعيا، بين سلسلة من الأصوات المنطوقة بهذه الطريقة أو تلك، فإننا سنكون أمام نوعيات أو أحاسيس غير محددة ولا تحيل على أي شيء غير كونها أصواتا : أي قبل أن تتجسد كدال يستدعي بالضرورة مدلولا (أو ماثولا يحيل على موضوع في اصطلاح بورس). فإذا نطقنا بهذه الكلمة أمام شخص لم يسبق له أن سمع هذه الكلمة ولا رأى سيارة، فإنه بالتأكيد لن يدرك أي مضمون فكري، ولن يتجاوز ذهنه حدود سلسلة من الأحاسيس قد تثيرها لديه طريقة النطق أو طريقة التأليف

(27) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 p 93

بين مجموعة الحروف التي تكون كلمة " سيارة " . وستظل الكلمة في ذهنه مجرد إمكان لا غير.

وبناء عليه، فإن الطابع الكلي واللامحدد للأولانية هو الذي يجعل من وجودها وجودا هشا، إذ إن وعي معطياتها سيؤدي إلى اختفائها «فمقولة الأولانية هشة لدرجة أن أي تماس معها تدمير لها»(28) : إني أشعر بألم لا أستطيع تحديد كنهه (إحساس غامض وغير محدد) لكنني بمجرد ما أتبين طبيعة هذا الألم، فإنني أكون قد تجاوزت الأولانية لكي أدخل إلى نظام مقولة أخرى لها علاقة بالوجود الفعلي، لا بالمحتمل والممكن. فـ "الظاهر" لا يبدو من خلال الأحاسيس أو النوعيات فحسب، «فبالإضافة إلى نوعية الأشياء، هناك الأشياء ذاتها باعتبارها موجودة فعليا في انفصال عنا، فنحن لا نكف عن الاصطدام بها» .(29) إن الظاهر في هذه الحالة يبدو من خلال مقولة ثانية، وهي مقولة من طبيعة مختلفة ومحددة لوجود آخر، ويطلق بورس على هذه المقولة الثانيانية. فما هي الثانيانية وما هو مضمونها وطبيعتها وما هي طرق اشتغالها وما هي علاقتها بالمقولة السابقة والمقولة اللاحقة؟

الثانيانية

إن الاحتمال هو مجرد احتمال، والارتكاز على الاحتمال وحده لن يوصلنا إلى أي شيء. فلا يمكن للأول أن يكون أساسا

(28) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1987 , p . 73 - 74

(29) Peirce : Textes anticartesiens , présentation et traduction Joseph Chenu , éd Aubier, 1984, p 77.

لتجربة فعلية، كما لا يمكن أن نتبين من خلاله أي شيء. فلابد إذن من تصور عنصر ثان يقوم بنقل الأحاسيس من وضعها الأصلي الأولي، إلى ما يجعل منها عنصرا داخل علاقة مع شيء آخر. وهذه العلاقة هي وحدها القادرة على الانزياح عن الخصائص الذاتية للشيء والولوج إلى دائرة العلاقة مع شيء آخر. فالشيء الذي لا يتقابل مع شيء آخر لا وجود له. لهذا فإن الكينونة هي نمط في الوجود يتحدد من خلال تقابله مع شيء ليس هو. «فالقول بأن هذه الطاولة موجودة، معناه القول إنها صلبة وثقيلة وتحدث أصواتا. وبعبارة أخرى، إنها تنتج آثارا تنعكس مباشرة على الحواس، وتحدث آثارا من طبيعة فزيائة صرفة.» (30)

ولهذا فإننا في انتقالنا من الأولانية إلى الثانيانية نكون في واقع الأمر بصدد الخروج من دائرة المتصل المنفلت من أي تحديد إلى الوجود العيني المحدد من خلال وقائع. انطلاقا من هذه الملاحظة، فإن الثانيانية كما يعرفها بورس هي «نمط وجود الشيء كما هو في علاقته بثان دونما اعتبار لثالث. إنها تعين وجود الواقعة الفردية»(31).

إننا مع الثانيانية ننتقل من الإمكان إلى التحقق، أي نلج دائرة الوجود. وبعبارة أخرى، إننا نقوم بصب المعطيات الموصوفة في الأولانية داخل وقائع محددة من خلال نقلها من طابعها الاحتمالي

---

(30) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe, Ed Seuil Paris 1978
انظر التعليق الذي خص به هذه الكتابات ص 209

(31) Carontini (Enrico) : Action du signe Ed Louvain-Laneuve 1984 p 17

إلى طابعها المتحقق. فالأولانية كنمط للوجود لا تستطيع وحدها، أي من خلال إمكاناتها الذاتية، أن تحدد أي شيء، فهي الاحتمال فقط. لذا، فإنه إذا كانت هذه المقولة (الأولانية) هي مقولة البداية والجدة، أي أنها أول داخل السلسلة [32]، فإن الثانيانية تحد من حرية هذه السلسلة. ذلك أن تحديد الثاني معناه تقليص للإمكان وتحويله إلى تحقق عيني. « فالعنصر الثاني داخل السلسلة يقوم بتحديد الأول، إنه يضع حدودا ويغلق بابا. فالأول وحده ليس سوى إمكان داخل السلسلة، أما الثاني فيحين السلسلة، إنه يدخل الوجود»[33].

لقد سبق أن رأينا أن كل شيء يمكن أن يعزل وينظر إليه باعتبارها أول داخل سلسلة، فإذا كان الأول هوالرقم 5، فإن الثاني غير محدد، ويمكن للوضع أن يستمر على هذه الحال إلى ما لا نهاية. إلا أننا إذا قلنا بأن الثاني هو الرقم 10، فإننا نكون قد قمنا بإغلاق السلسلة، ووضعنا حدا للاحتمال لكي ننتقل إلى التحقق، ونكون في نفس الآن، كما سنرى ذلك في الفقرة الموالية، قد سربنا القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا. إن الثاني هو إيقاف لدائرة الاحتمال، لأننا ندخل عنصرا نقيضا يتجلى في الوجود.

إن دخول الوجود معناه دخول الفضاء ودخول الزمان، ومعناه أيضا الانتقال من المتصل إلى اللامتصل. فمن الغموض واللبس والإبهام ننتقل إلى الوجود الفعلي، أي ننتقل إلى وجود تكون فيه

---

(32) Savan (David): La Sémiotique de Peirce, Langages 58 p 11

(33) نفسه ص 11

الأحاسيس والنوعيات مجسدة في وقائع محددة. فلا يمكن للحدث أن يكون مجرد احتمال أو مجرد إحساس، إن الحدث تحيين مرئي، ولقد تساءل بورس قائلا «إذا سألتكم أين يكمن تحيين حدث ما، فستردون قائلين : إنه وقع في مكان معين وزمان معين. إن تحديد المكان والزمان يتضمن كل علاقات هذا الحدث مع الموجودات الأخرى». (34)

وعلى هذا الأساس، فإن الواقعة (الحدث) هي التحقق الفعلي الذي يتم من خلال الحدود المحددة لأي وجود، والمقصود بهذه الحدود : الزمان والمكان، «فالأشياء لا تدرك إلا متحيزة في المكان ومتعاقبة في الزمان». (35)

فإذا كان الأحمر في ذاته غير قابل للوصف، وإذا كان الألم والسعادة غير قابلين للتحديد أيضا من خلال خصائصهما الذاتية، فإن الانتقال إلى الثانيانية معناه نقل هذه الأحاسيس وهذه النوعيات من طابع اللامحدد إلى الطابع المحدد ضمن وقائع قابلة للإدراك كوجود عيني. فالأحمر قبل وجود شيء أحمر لم يكن سوى إمكان، لكنه وقد تجسد في " ثوب أحمر " أو " علم أحمر " ، فإنه سيتحول من الإمكان إلى الوجود القابل للمعاينة.

وإذا عدنا إلى المثال السابق (مثال السيارة)، ونظرنا إلى السيارة من زاوية الثانيانية، فإننا نكون أمام نمط جديد للوجود. فالسيارة التي لم تكن سوى أصوات مدرجة داخل سلسلة مكتوبة أو منطوقة

---

(34) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1987, p . 69

(35) ابراهيم زكريا كانط ص 56.

ستتحول إلى شيء يمكن معاينته لا باعتباره نوعية أو إحساسا، بل باعتباره وجودا. وستكون السيارة في الوجود هي تحقيقا للسيارة كإمكان (أصوات: أحاسيس أو نوعيات). فالشخص الذي لم يسبق له أن سمع بهذه الكلمة، قد يشعر بمجموعة من الأحاسيس، إلا أنه لن يدرك أي شيء أبعد من هذه الأحاسيس، فهو قد يصرف نظره عن الأمر كله، أو قد يسأل عن فحوى السيارة، حينها يمكن أن نأخذ بيده لنريه سيارة فعلية. وفي هذه الحالة فإننا نكون قد قد ربطنا بين كلمة "سيارة" وبين شيء موجود فعلا. وبعبارة أخرى نكون قد أفرغنا معطيات الأولانية داخل واقعة فعلية. فما كان مجرد أحاسيس سيتحول إلى وجود فعلي.

انطلاقا مما سبق، فإن الثانيانية هي مقولة «الواقعي والفردي، إنها مقولة التجربة والواقعة والوجود: وجود الشيء ووجود الحدث، وجود الفكرة والوضعية والحلم المدرك. إنها مقولة " الهنا والآن "، وجود الشيء الذي حدث في زمان ومكان معينين. إنها مقولة القوة العنيفة ومقولة الجهد الذي يصطدم بمقاومة، إنها مقولة الفعل ورد الفعل». [36] إن الثانيانية، من هذه الزاوية بالذات هي الشرط الأساسي لتحويل الإمكان واللاتحديد (اللاعضوي واللامحدد) إلى حقائق مجسدة داخل حقل التجربة الإنسانية.

فهل هذه المقولة كافية وحدها لإنتاج دلالة وتحديد إدراك، وهل هي كافية للحديث عن قانون وعن قاعدة ؟ وبعبارة أخرى، هل

---

(36) Everert-Desmedt (Nicole): Le processus interprétatif : Introduction à la sémiotique de C . S . Peirce , Ed Mardaga 1990 p 35

باستطاعة الإنسان التخلص من مقتضيات "الأنا" و "الهنا" و "الآن" اعتمادا فقط على الثانيانية، أو اعتمادا على المزج بين الأول والثاني ؟ .

كلا «فتحديد الإنسان من خلال الأولانية أو من خلال الثانيانية معناه ألا إمكان للحديث عن قانون ولا عن ضرورة» (37). فالأولانية تشير إلى الإمكان فقط، والثانيانية إلى التجربة الصافية فقط : هذه الأشياء هنا لا أقل ولا أكثر، أي أننا لازلنا في مرحلة قائمة على عملية ربط عرضي بين إمكان ووجود.

وبناء عليه لابد من دخول عنصر ثالث، عنصر يقوم بتبرير العلاقة الرابطة بين الأول والثاني. «فنحن لانستطيع أن درك مضامين فكرنا انطلاقا من الأولانية والثانيانية فقط. فكل ما يتم إنجازه يعود إلى الثانيانية، أما الحاضر المباشر، إذا أمكن الإمساك به، فلن يكون له سوى طابع الأولانية». (38). إن العنصر الثالث الذي يجمع بين الأول والثاني سيقوم بالكشف عن القانون الذي يجعل من تحقق الإمكان داخل الوجود أمرا ممكنا ومعقولا. إن الأمر يتعلق بما يطلق عليه بورس الثالثانية، أي نظام الرمزية الذي يمكننا من التخلص من مقتضيات التجربة الصافية، لامتلاك العالم فكريا.

الثالثانية

إننا نعيش داخل عالم رمزي، فنحن نتبادل أشياءنا وكلماتنا وسلوكنا استنادا إلى تصورات رمزية. فالاحتكاك المباشر مع الواقع

(37) Savan نفسه ص 11

(38) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 p . 98

مـجـرد وهـم، أو هو كـذلك بالنسـبـة للعـامـة أوإلى ذوي الأذهان البسيطة. فـالإنسـان لا يلج العـالـم الخـارجي دون وسـائط، إنه يفعل ذلك من خـلال اللغة ومن خـلال الدين والأسطورة والخـرافـة، فكل هذه " الأشكال الإدراكية " هي وسائط يلج الإنسان من خلالها إلى عـالم الأشيـاء. إن فكرة التـوسط بين الإنسـان وعـالمه هي الأسـاس الذي يجعل من كل شيء وكل سلوك يفرغ داخل قوالب رمزية لكي يتم استيعابه باعتباره مجموعة من المفاهيم. فتنظيم التجربة الإنسانية يتم دائما بعيدا عن الإرغامات التي تفرضها "الهنا" و"الآن".

وعلى هـذا الأسـاس، فـإن الإمـسـاك بالبـعـد الرمـزي للتـجـربة الإنسـانيـة هو وحـده الكفـيل بإنتـاج المـعـرفـة وتداولـهـا، وتـلك هي الوظيـفـة الأسـاس التي تقـوم بهـا الثـالـثـانيـة. فـالسلسلة تتـوقـف عند الثـانـي، لكنهـا لا تكتـسـب طابع القـانون إلا مع دخـول الثـالـث، فالأولانية تحيل على الثانيانية عبر الثالثانية، والمقولة الأخيرة هي ما يبرر العلاقة بين الأول والثاني ويمنحهـا بعدا فكريا. «فالقـول بأن سقراط إنسان معناه القول إنه إنسان يمتلك مجموع الخصائص التي تسند عادة إلى الفصيلة البشرية، والقول بأن الماس صلب، معناه القول مثلا إننا لا يمكن أن نحدث فيه خدوشا من خلال آلة ما مهما تعددت المحاولات من أجل فعل ذلك». (39)

يمكن القـول إذن إن الثـالـثـانيـة هي الشـرط الضـروري لإنتـاج القانون والضرورة والفكر والدلالة. فلا يمكن للأول أن يحيل على

(39) Peirce : Textes anticartesiens , présentation et traduction Joseph Chenu , éd Aubier, 1984 , p 79 - 80

الثاني إلا من خلال وجود عنصر ثالث يربط بينهما ويضعهما في علاقة. وعلى هذا الأساس، فإن الثالثانية هي مقولة التوسط بامتياز. فكل ما يتوسط شيئين ويقوم بالربط بينهما يشتغل كثالث. والتوسط معناه جعل الأول يحيل على الثاني وفق قاعدة تشتغل كقانون. فالقول بأن (5) هي الأول وأن (10) هي الثاني معناه إرساء قانون يجعل الانتقال من الأول إلى الثاني يتبع سبيلا (قاعدة) يحدد نمط اشتغال السلسلة كلها. «فالقانون هو الطريقة التي يستطيع من خلالها المستقبل الذي لا نهاية له الاستمرار في الوجود». (40)

إن العادة التي تسمح لنا بتأويل سلوك معين، والقانون الذي يجعل من الحديد يتمدد بالنار، والفكر الذي يسمح لنا بالربط بين " السيارة كأصوات والسيارة كوجود حقيقي "، كل هذه العناصر تشتغل كثالث، أي كثالثانية تسمح لنا بالتخلص من مقتضيات الوجود العيني والتحليق بعيدا عنه، أي خلق عالم تجريدي نفسر به الواقعي والمتخيل على السواء. «فإذا كانت الثانيانية هي مقولة الفردي، فإن الثالثانية والأولانية هما مقولتا العام. إلا أن عمومية الأولانية هي من نظام الممكن، في حين أن عمومية الثالثانية هي من نظام القانون والقاعدة. (41)

وللمزيد من التوضيح، سنحيل من جديد على المثال السابق. لقد قلنا إن الشخص الذي لم يسمع كلمة سيارة قد لا يحتفظ من هذه الكلمة سوى بأصوات تثير لديه أحاسيس معينة. إلا أننا إذا وضعناه

---

(40) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris, p 98

(41) Evereart-Desmedt (Nicole) : Le processus interprétatif : Introduction à la sémiotique de C . S . Peirce , Ed Mardaga 1990 p 36.

أمام سيارة فسنكون حينها قد ربطنا بين اسم وشيء موجود فعلا، أو ربطنا بين مجموعة من الأحاسيس وبين ما يجسدها في واقعة فعلية. فهل هذا الربط كاف لكي نتحدث عن فكر أو قانون أو ضرورة؟ بالطبع لا، فهذا الربط يتميز بالعرضية، فهو مؤقت ولا يستند إلى أي قانون. فهذا الشيء هنا فقط لا أقل ولا أكثر. وبعبارة أخرى، إن الأمر يتعلق بتجربة صافية خالية من أية دلالة. فقد ينصرف صاحب السيارة ويعود الرجل إلى جبله أو صحرائه وسينسى الكلمة والسيارة معا. لماذا هذا " النسيان "؟ لقد حدث ذلك لأننا لم نضع بين يديه القانون الذي يجعله " يتذكر " السيارة. وهذا القانون هو الفكر الذي يجعل كل الأشياء المشابهة تصدق عليها كلمة سيارة. وهذا القانون هوالتعريف الذي قد يعطى للسيارة. فهي آلة ميكانيكية تحتاج إلى الوقود للاشتغال وتسير على أربع عجلات وتستعمل للتنقل . . . حينها سيتخلص الرجل من" النسخة " الموجودة أمامه ليمتلك النموذج الذي يستوعب داخله كل النسخ. فعندما يمتلك هذا القانون، فإن كل السيارات، أي كل الآلات التي تستجيب لعناصر هذا التعريف ستكون عنده سيارة دونما اعتبار لنوع السيارة أو هيئتها أو تاريخ صناعتها.

وبناء عليه، فإن الثالثانية هي أداة الإنسان في التخلص من التجربة الفردية وإسقاط السنن كتكثيف لمجموع التجارب الفردية. ذلك أن الإمساك بالأول والثاني لا يتم إلا من خلال الثالثانية. إننا نعيش الأحاسيس ونعيش الوجود من خلال هذه المقولة. «إن الإنسان يوجد داخل الرمزية. إن فكره يتشكل من علامات، وبواسطة السنن (الثالثانية) يستطيع الإمساك بالواقعي (الثانيانية)

وبالممكن (الأولانية) »[42] . ف «علاقتنا بالواقع ليست مباشرة، إننا نكون لأنفسنا نموذجا للواقع عبر تأويل رمزي. وهذا التأويل يستند إلى أسنن مشتركة تشكلت وتطورت داخل السيرورة الإبلاغية »[43]. وهذ أمر طبيعي «فالفكر ليس نوعية، فالنوعية خالدة ومستقلة عن الزمان ومستقلة عن كل تحقق، ولن يكون بالتأكيد واقعة، ذلك أن الفكر عام (. . .) إنه عام لأنه يحيل على مجموع الأشياء الممكنة، وليس فقط على تلك الموجودة. (. . .) »[44] فلكي يحيل سلوك ما على قانون أو يكون مصدرا للدلالة يجب أن يظهر بمظهر العام، أي يكون قادرا على تغطية مساحة تشتمل على بنية عامة تحتوي على كل النسخ الممكنة لهذا السلوك.

إن فكرة الدلالة ذاتها مبنية على سيرورة ثلاثية، فلا يمكن تصور دلالة خارج سيرورة تجمع بين عناصر ثلاثة، وذلك يعود في تصور بورس إلى مقدمتين منطقيتين : «المقدمة الأولى هي أن كل علاقة ثلاثية أصيلة تستدعي دلالة، مادامت الدلالة هي بطبيعة الحال علاقة ثلاثية. والثانية هي أن العلاقة الثلاثية لا يمكن أن يعبر عنها من خلال علاقات ثنائية. وقد نحتاج إلى كثير من التفكير لكي نقتنع بأن كل علاقة ثلاثية تستدعي دلالة ». [45]

في ضوء المعطيات السابقة، يمكن القول إن الشرط الأساس لتداول المعنى، ولإنتاج دلالة وخلق حوار بيإنساني يكمن في وجود

---

(42) نفسه ص 104

(43) نفسه ص 106

(44) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 p 81 - 82

(45) نفسه ص 99

عنصر يقوم بتنظيم معطيات التجربة العادية وفق مصفاة تتطابق مع الذاكرات الفردية بحيث إن كل ذاكرة تتحدد من خلال ذاكرة المجموع . « إن المقولة الثالثة لعناصر الظواهر تشتمل على ما نسميه بالقانون عندما نتأملها من الخارج فقط ، أما حين ننظر إلى وجهي العملة فإننا نسميها فكرا . فالأفكار ليست لا نوعيات ولا وقائع وليس بمقدور أية مجموعة من الوقائع أن تنتج قانونا ، ذلك أن القانون يتجاوز الواقعة المتحققة » . (46)

وكما كان الأول بداية وكان الثاني نهاية ، فإن الثالث هو القانون الذي وفقه تتم العلاقة بين الأول والثاني . والرابط بين العناصر الثلاثة هو ما يحدد في نهاية المطاف طريقتنا في الإمساك بالتجربة الإنسانية واستيعابها كمفاهيم أي كفكر ، وهو وحده الذي يقذف بالإنسان داخل سيرورة رمزية يدرك عبرها كل شيء باعتباره شكلا رمزيا . فالشيء لا يدرك في ذاته ، بل يدرك باعتباره سلسلة من الإحالات الدلالية المتنوعة .

ولئن كانت نظرية المقولات حقلا مكتفيا بذاته ، ويخص التجربة الإنسانية في عموميتها ، فإنها تعد الأساس الصلب الذي على أساسه ستبنى السميائيات باعتبارها نظرية في المعرفة ومنطقا في الإدراك . فالعلامة ليست تعيينا لأشياء فحسب ، وليست إنتاجا لمعنى فحسب ، إنها في المقام الأول الأداة الرئيسة لتنظيم التجربة الواقعية ومثولها أمامنا باعتبارها تجربة رمزية . وهذا ما سنحاول توضيحه في الفصول الآتية من هذا الكتاب .

---

(46) نفسه ص 81 – 82

الفصل الثاني

السميائيات

العلامة والسيرورة التدليلية

من عالم المقولات والإدراك ووعي المحسوس، ننتقل إلى دراسة العلامة السميائية كما تصورها بورس وصاغ حدودها. ورغم ما يوحي به الاختلاف في المصطلحات وتسميات الظواهر، فإن ما جاءت به نظرية المقولات هو نفسه ما سيحدد كافة المضامين التي يمكن أن تمنح للسميائيات. بل يمكن القول إن الحقل التطبيقي المفضل لنظرية المقولات هو الحقل السميائي ذاته. فمنطق الإحالة والتمثيل وانبثاق القانون من سيرورة هذا التمثيل هو نفسه ما يحكم وجود العلامة واشتغالها وأشكال تجلياتها.

إن مبدأ الثلاثية، الذي يعد منطلق كل تمثيل، هو ذاته ما يشكل بناء العلامة، فالتمثيل في ذاته ليس وحدة ثنائية المبنى تفصل التمثيل عن المعطى الموضوعي (ما يشكل الثانيانية في المقولات)، إن التمثيل ينطلق، على العكس من ذلك، من أداة هي ذاتها لا تشكل سوى إمكان لا أقل ولا أكثر (الأولانية في نظرية المقولات)، إذ لا يمكن للتمثيل أن يتخذ شكلا مرئيا إلا في حدود قدرته على التجسد في واقعة بعينها. إلا أن هذا التجسد ذاته ليس سوى فعل عرضي زائل

سينتهي بانتهاء الشروط التي أنتجته (ما أشرنا إليه في الفصل السابق بـ " التجربة الصافية "). فلا بد إذن من قاعدة تجعل هذا الربط يتسم بالديمومة والاستمرار، أي يتحول إلى قانون ثابت. فالقاعدة يجب أن تنطبق على مجموعة لا محدودة من الوقائع، أي يجب أن تكون عامة للحديث عن فكر وضرورة وعن قانون يحكم كل الوقائع. فالقاعدة التي تنطبق على حالة واحدة لا يمكن أن تنتج فكرا أو إدراكا، إن هذه القاعدة هي الثالثانية في نظرية المقولات.

يمكن القول إذن إن العلامة ستبنى هي الأخرى باعتبارها وحدة ثلاثية المبنى شأنها في ذلك شأن نظرية المقولات، بل إن نمط وجودها ومضمونها وموقعها داخل الممارسة الإنسانية هو التجلي المباشر للمقولات باعتبارها هي الأساس الذي يشكل الإدراك الإنساني: إدراك الذات لعالمها الخارجي ووعيها لمعطياته.

استنادا إلى هذا، فإن الحديث عن سميائيات بورس هو حديث عن تصوره لعملية الإدراك: إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك " الأنا " وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه " الأنا " . وهذا أمر في غاية الوضوح في تصور بورس. فلا شيء يوجد خارج العلامات أو بدونها ولا شيء يمكن أن يدل اعتمادا على نفسه دون الاستناد إلى ما توفره العلامات كقوة للتمثيل، فالتجربة الإنسانية بكافة أبعادها ومظاهرها تشتغل في تصور بورس كمهد للعلامات: لولادتها ونموها وموتها.

إن الإنسان علامة وما يحيط به علامة وما ينتجه علامة، وما يتداوله هو أيضا علامة. والخلاصة أن لا شيء يفلت من سلطان

العـلامـة، ولا شيء يمكن أن يشتـغل خـارج النسق الذي يحـدد له حـجمه وامتـداده وعـمـقه. كـمـا لا يمكن أن يوجـد شيء داخل هذا العـالم حـرا طليـقا يحلق في فـضـاءات الكون لا تحكمـه ضـوابط أو حدود ولا يحد من نزواته نسق.

إن كل شيء يدرك بصفته علامة ويشتغل كعلامة، ويدل باعتباره عـلامـة. فـالـتـجـربة الإنسـانيـة بدءا من صـرخـة الرضـيع إلى تأمل الفيلسوف ليست سوى سلسلة من العلامات المترابطة والمتراكبة، إنه مبدأ الامتداد الذي يجعل من التجربة الإنسانية بكل لغاتها (أو مواد تعـبيرهـا) تجربة كليـة، تنتهي مـعه العـلامة إلى الانصـهار في الفعل.

ولفهم هذه المسلمات في نظر بورس يمكن التـذكير بما قلناه في الفـصل السـابق عن اللحظات الثـلاث المـحـددة لمـيكـانيـزم الإدراك. لقـد رأينا أن المـقـولات الثـلاث هي مـا يحـدد التـجـربة الإنسانية في مرحلة أولى كنوعيات وأحاسيس (أولانية)، ثم كوقائع وموضوعات (ثانيانية) في مرحلة ثانية، وكقوانين وعادات (ثالثانية) في مرحلة ثالثة. إن التجربة الإنسانية بهذا المعنى، تجربة كلية، وهذه الكلية لا يمكن أن تشتغل بشكل تام إلا من خلال وجود هذه الأبعاد الثلاثة.

إن هذه المقولات الثلاث توجد في أساس التعريف الذي يمكن إعطاؤه للعلامـة. فـالعـلامـة في ذاتهـا يمكن أن تشـتـغل كـأول وثان وثالث. إنـهـا تـحـتـوي في داخلهـا على الإمكـان والتـحـقق والقـانون (الفكر أوالدلالة).

إن تأكيد هذا معناه النظر إلى العلامة باعتبارها عنصرا داخل تصور نظري شامل يتناول الإنسان كتجربة متعددة الأبعاد : إنه منتج للدلالة ومروج لها وأول ضحاياها .

وهذا ما يفسر القول السابق من أن الحقل الأساسي لتطبيق نظرية المقولات هو السميائيات . فإذا كان الأول يحيل على الثاني عبر الثالث (النوعيات أو الأحاسيس تتجسد في وقائع عبر قانون أو قاعدة تسمح بذلك)، فإن العلامة عند بورس تشتغل وفق نفس المبدأ : مبدأ الثلاثية ومبدأ الاحالة . فالماثول (représentamen) يحيل على موضوع (objet) عبر مؤول (interprétant) .

ولمزيد من التوضيح سنحيل من جديد على المثال الذي قدمناه في الفصل السابق، ويتعلق الأمر بكلمة "سيارة" . فهذه الكلمة هي علامة تتكون من ماثول هو سلسلة من الأصوات / س ي ا ر ة / ، ومن موضوع وهو ما تحيل عليه السيارة باعتباره في ذاته قاعدة للإحالة، وتحتوي ثالثا على ما يبرر العلاقة القائمة بين المتوالية الصوتية وهذا الموضوع .

ولنفترض الآن أننا نطقنا بهذه الكلمة أمام شخص لم يسبق له أن سمع بالكلمة ولا رأى السيارة فماذا سيحدث ؟ بالتأكيد لن يدرك هذا الرجل سوى سلسلة من الأصوات . صحيح قد تعجبه رنة الكلمة، كما قد يستهويه تسلسل الأصوات وطريقة ترتيبها مما يخلق عنده إحساسا ما، وما عدا هذا الإحساس فإنه لن يدرك أي شيء .

إلا أنني قد أخطو خطوة إضافية وآخذ بيده وأريه سيارة "فعلية" ، وفي هذه الحالة سيقارن بين السيارة والكلمة، وسيدرك

أن تلك الأصوات تعين هذا الشيء المفرد المجسد أمامه باعتباره " واقعة فعلية " و " وجودا عينيا " . وهنا أكون قد ربطت بين متوالية صوتية وبين موضوع بعينه، أي قمت بصب "معطيات شعورية أو نوعية" في تجربة قابلة للمعاينة . إلا أن هذا الربط في ذاته لا يمكن أن يكون نهاية السيرورة، ولا يمكن أن يشكل في ذاته سندا صلبا للإدراك .

فهذا الربط عرضي ولحظي وزائل، في حين أن الإدراك يحتاج إلى التجريد، أي ما يجعل من التجربة قابلة للنقل . فقد يعود هذا الرجل إلى مسكنه وينسى الكلمة والشيء معا . والسبب في ذلك أنه لا يملك ما يسمح له بصياغة تجريدية لحدود تجربة واقعية رآها بأم عينه . فلكي يمتلك السيارة في ذاكرته، عليه أن يتوفر على قانون . والقانون هو أن نجعل من الربط بين السيارة ككلمة والسيارة كموضوع ربطا دائما، بحيث قد تنتفي السيارة كوجود عيني، إلا أنها تظل مع ذلك حاضرة كنموذج إدراكي دائم في ذهنه . وهذا النموذج هو التعريف الذي يمكن أن نعطيه للسيارة باعتبارها آلة تتحرك بأربع عجلات ومحرك وتسير بالبنزين، وتستعمل للتنقل . إن هذا النموذج، الذي يقوم بالتوسط بين كيانين، هو ما يطلق عليه بورس المؤول .

إن هذه السيرورة الموصوفة من خلال هذا المثال يطلق عليها بورس السميوز(sémiose) . والسميوز هي السيرورة التي تقود إلى إنتاج دلالة ما، أي إلى تأسيس العلاقة السميائية ماثول– موضوع عبر عنصر التوسط الإلزامي : المؤول .

وبعبارة أخرى، فإن السميوز تتحدد باعتبارها سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة. وتستدعي تضافر ثلاثة عناصر: الماثول والموضوع والمؤول، وهي عناصر تشتغل ضمن حلقة يحيل كل عنصر داخلها على عنصر آخر. والعلامة لا يمكن أن تكون علامة إلا إذا كانت جمعا وربطا بين هذه العناصر الثلاثة.

إن الخلاصة الأولى هي أن العلامة عند بورس وحدة ثلاثية المبنى غير قابلة للاختزال في عنصرين كما هو الشأن عند سوسير. فسوسير يرفض أن يتضمن تعريف العلامة عنصرا من خارج اللسان. فالعلامة عنده تربط بين دال ومدلول (بين صورة سمعية وتصور ذهني) لا بين اسم وشيء. فلقد رفض بشكل قطعي في تعريفه للعلامة إدراج كل ما يمكن أن يشير إلى ما يسمى عنده بالمرجع، أي الشيء بصفة عامة.

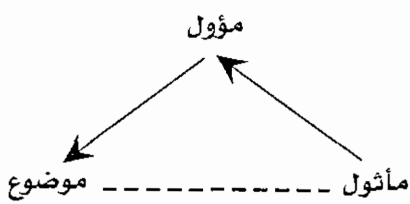
على أن الثلاثية هنا لا يجب أن ينظر إليها باعتبارها إضافة لعنصر ثالث غائب في نظريات أخرى، كما لا تتعلق بالإحالة الحرفية على مرجع، أي على سلسلة من الموضوعات التي تتمتع بوجود فعلي وتشتغل في استقلال عن الذات المدركة، أي خارج العلامة. إن الأمر على العكس من ذلك؛ فالقضية من طبيعة أخرى. إنها تعود في واقع الأمر إلى تصور نظري يجعل من العالم بكافة أبعاده علامة، ويعود من جهة ثانية إلى كون كل عنصر داخل العلامة قادر على الاشتغال كعلامة أي قابلا للتحول إلى ماثول يسقط خارجه موضوعا عبر مؤول، «فالموضوع هو في المقام الأول علامة، لأن الإمساك به يتم دائما من خلال عماد fondement، وكل مرجع لا يشكل، في

نهاية المطاف، سوى حالة قصوى لا حالة بعدها»[1]. ويمكن تفسير هذا التصور من خلال خاصيتين تعتبران أساسيتين في تصور بورس لاشتغال ووجود العلامة:

- **الخاصية الأولى** تعود إلى كون السميائيات عند بورس ليست مرتبطة باللسانيات، فموضوع دراستها لا يختصر في اللسان، ذلك أن التجربة الإنسانية (واللسان جزء منها) هي موضوع السميائيات البورسية.

- **الخاصية الثانية** تعود إلى نمط التصور الذي يحكم، في فلسفة بورس، العلاقة الرابطة بين الإنسان ومحيطه. فهذه العلاقة تتميز بكونها غير مباشرة ويحكمها مبدأ التوسط (ما يطلق عليه كاسيرير الأشكال الرمزية). فالأشياء لا تدرك إلا رمزيا، أي تدرك باعتبارها جزءا من نسق من العلامات، فما تدركه الذات ليس أشياء مفصولة عن وعي هذه الذات.

وعلى هذا الأساس، فإن السيرورة السميائية (حقل السميوز) تستدعي الماثول كأداة للتمثيل، وتستدعي الموضوع كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤولا يقوم بالربط بين العنصرين، أي ما يوفر للماثول إمكانية تمثيل الموضوع بشكل تام داخل الواقعة الإبلاغية:



(الخط المتقطع يشير إلى أن العلاقة بين الماثول والموضع ليست مباشرة بل تمر عبر المؤول).

Claudine Tiercelin : Peirce et la Pragmatique, éd P U F , 1993 , p . 66 (1)

إن الإحاطة بالعلامة والكشف عن نمط اشتغالها يتطلبان تعريف العناصر التي تكونها وتحديد موقع كل عنصر داخل عملية إنتاج الدلالة بالإضافة إلى نمط اشتغاله الذاتي .

الماثول

إن العلامة هي علاقة ثلاثية بين أول وثان وثالث . وتحتوي هذه الثلاثية على مبدأ الإحالة اللامتناهية . فالأول يحيل على الثاني عبر ثالث ، هو نفسه قابل لأن يتحول إلى أول يحيل على ثان عبر ثالث جديد . فالسميوز «هي في الاحتمال سيرورة لامتناهية ، وهي في الوجود منتهية » . (2) ويعرف بورس الماثول بقوله «إن العلامة أوالماثول (3) هي شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة . إنه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا . إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى وهذه العلامة تحل محل شيء هو موضوعها » (4) .

إن الماثول ، على هذا الأساس هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء آخر . إنه لا يقوم إلا بالتمثيل ، فهو لا يعرفنا على الشيء ولا يزيدنا معرفة به . ذلك أن موضوع العلامة ، كما يقول بورس ، هو ما يجعل منها شيئا قابلا للتعرف ، وهو ، في نفس

---

(2) Deledalle, "Avertissement aux lecteurs de Peirce" , in Langages n 58 , p .26

(3) رغم أن بورس يستعمل عبارة " العلامة أوالماثول " فإن هناك فرقا واضحا بينهما . «فالعلامة هي الشيء المعطى كما هو ، بينما يعين الماثول الشيء / علامة منظورا إليه داخل التحليل الثلاثي كعنصر داخل سيرورة التأويل » .

انظر Everert-Desmedt (Nicole): Le processus interprétatif, p. 39

(4) بورس المرجع السابق ص 120

الوقت، المعرفة المفترضة من خلال وجود باث ومتلق [5].

ويستفاد من هذا التعريف أن الماثول:

- ليس واقعة لسانية بالضرورة.
- يحل محل شيء آخر.
- أداة للتمثيل.
- لا يوجد إلا من خلال تحيينه داخل موضوع ما.
- لا يستطيع الإحالة على موضوعه إلا من خلال وجود مؤول يمنح العلامة صحتها (توفير شروط التمثيل).

«فإذا أخذنا قطعة من ورق أحمر (ماثول) كعينة لعلبة صباغة (موضوع)، فإن هذه القطعة لا تشير إلا إلى اللون الأحمر الخاص بهذا الموضوع. ذلك أن المعرفة الخاصة بالموضوع مفترضة من خلال مجموع مظاهره (التكييف، المادة، الاستعمال . . .):

ماثول ←———————— موضوع
قطعة من
ورق احمر - - - - - - - - - - - علبة صباغة حمراء [6].

إن كل ما يشتغل كحامل لشيء يتجاوزه يمكن أن يشتغل كماثول (قد يكون من طبيعة لسانية أو اجتماعية، أوموضوع من موضوعات العالم). إن استعمال بورس لكلمة شيء (chose) في تعريفه للماثول

Carontini (Enrico) : Action du signe , p. 25 (5)

(6) افرات دسمدت نفسه ص 40

معناه أن هذا الماثول ليس متوالية صوتية لها موقع معين داخل لسان ما، بل هو ظاهرة عامة قد تكون اجتماعية وقد تكون طبيعية وقد تكون لسانية بطبيعة الحال. وفي جميع الحالات، فإن نمط اشتغال ماثول ما لا يحدده سوى الموقع الذي يحتله داخل نسق سميائي ما؛ فالماثول يتحدد إذن وفق طريقتين:

- وفق علاقته بكل الماثولات الأخرى التي تشترك معه في وظيفة التمثيل (أي أننا لا نأخذ في الاعتبار سوى وظيفة التمثيل ونغفل انتماءه إلى هذا النسق أو ذاك).

- ويتحدد وفق موقعه داخل النسق المحدد لطبيعته (ينظر إلى الماثول باعتبار النسق الذي ينتمي إليه: طبيعيا، اجتماعيا، لسانيا).

وبما أننا نتعامل مع الماثول باعتباره الأداة الأولى في الخروج من النوعيات والأحاسيس إلى ما يمثل تجسيدا لهذه النوعيات وهذه الأحاسيس، فإن إحالته على موضوع ما لا تلغي إمكان استمراره في الحياة ككيان مستقل باعتباره قابلا للتجزيء وفق مبدأ المقولات العامة نفسه: أولانية الماثول وثانيانية الماثول وثالثانية الماثول (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب). ومن هذه الزاوية، فإنه يختلف عن الدال السوسيري [7] الذي لا يدرك إلا من خلال وجود المدلول، تماما كما أن المدلول لا يدرك إلا من خلال وجود الدال.

---

(7) انظر Deledalle, G : Théotie et pratique du signe, Ed Payot 1979
وخاصة الفصلين:

Peirce ou saussure pp 29-39

Saussure et Peirce, pp 40; 49

إن الماثول لا يعرفنا على الشيء ولايزيدنا معرفة به، إن وظيفته الأساس هي التمثيل لشيء آخر. وبعبارة أخرى، فإن الماثول هو ما يمكن الموضوع من الخروج من دائرة الوجود الطبيعي، إلى ما يشكل الوجود الثاني في حياة الأشياء. فخارج التمثيل لا يمكن للموضوع أن يكون موضوعا، فحياته رهينة بالموقع الذي يحتله داخل سيرورة السميوز، كيفما كانت الأداة المستعملة في التمثيل.

الموضوع

إن الموضوع هو ما يقوم الماثول بتمثيله، سواء كان هذا الشيء الممثل واقعيا، أو متخيلا أو قابلا للتخيل أو لا يمكن تخيله على الإطلاق. ويلخص بورس هذه الملاحظة بقوله «إن موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة لكي تأتي بمعلومات إضافية تخص هذا الموضوع [8]. ويوضح بورس هذا التعريف بقوله « إذا كان هناك شيء يحدد معلومات دون أن تكون لهذه المعلومات أدنى علاقة بما يعرفه الشخص الذي يستقبلها لحظة بثها (وستكون معلومة غريبة حقا)، فإن الأداة الحاملة لهذه المعلومات لا تسمى - في هذا الكتاب - علامة» [9].

فإذا كان الموضوع، كما هو واضح من هذا التعريف ومن التصور البورسي للعلامة بصفة عامة، لا يعين مرجعا ماديا منفصلا عن فعل العلامة ذاتها، فإنه لا يمكن أن يشتغل إلا إذا نُظر إليه باعتباره علامة. وبعبارة أخرى، فإن الأمر لا يتعلق بموضوعات تتحرك خارج دائرة

---

(8) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe, p 123

(9) نفسه ص 124

فعل السميوز، بل يتعلق الأمر بعنصر يعد جزءا من العلامة وقابلا للاشتغال كعلامة. «فموضوع العلامة لا يمكن أن يكون إلا علامة أخرى. ذلك أن العلامة لا يمكن أن تكون موضوعا لنفسها. إنها بالأحرى علامة لموضوعها من خلال بعض مظاهره»[10].

وبناء عليه، فإن الحديث عن موضوع ما داخل إحالات السميوز لا يمكن أن ينفصل عن عملية الإبلاغ نفسها. فالباث والمتلقي يجب أن يمتلكا معرفة سابقة عن موضوع ما لكي يكون هناك حوار. وهذه المعرفة السابقة (في علاقتها بالمعرفة الإضافية) تتحدد من خلال سلسلة من العلامات السابقة، أي العلامات غير المتحققة داخل السياق الخاص للابلاغ. وهذا السياق الخاص هو الذي يحدد الموضوع الخاص للعلامة. وبتعبير آخر، من أجل رد هذا الموضوع إلى هذه العلامة وليس إلى تلك، يجب استحضار السياق الخاص الذي تندرج العلامة وتؤول ضمنه، «ذلك أن العلامة لا توفر معرفة ما فحسب، بل نستطيع عبرها التعرف على شيء جديد» [11].

إن الملاحظة الأساسية التي يمكن استخراجها من هذا التصور، تعود إلى طبيعة الموضوع. هل يعين الموضوع شيئا ما في العالم الخارجي، أم هو مجرد مضمون ذهني لا مقابل له في الواقع ؟ وبعبارة أخرى، هل يمكن الحديث عن الموضوع باعتباره شيئا يتحدد من خلال خصائصه الفيزيقية فقط، أم أن الأمر يتعلق بعلامة

(10) Calvet de Magalhaes (Theresa): Signe ou Symbole; Introduction à la sémiotique de C S Peirce Ed Cabay 1981 p 162

(11) نفسه ص 161

أخرى، أي بوحدة ثقافية لا تدرك إلا من خلال سنن التعرف كما يعبر عن ذلك إيكو.

من الواضح أن التحليل البورسي يقودنا إلى التحديد الثاني. فبما أن الموضوع يحيل على معرفة سابقة مشتركة بين الباث والمتلقي، فإن هذه المعرفة تشكل وحدة ثقافية مسننة داخل موسوعة، بتعبير إيكو. وبهذا المعنى، فإن التعامل مع الموضوع بطريقة أخرى غير ما رأيناه سابقا معناه الابتعاد عن روح هذا التحليل. فالموضوع لا يدرك كذلك إلا من خلال انضوائه داخل عالم السميوز كجزء لا يتجزء منها.

وفي ضوء هذا التعريف، يمكن التمييز بين معرفة مباشرة وأخرى غير مباشرة (أي التمييز بين ما تفترضه العلامة وبين ما تحققه). فالمعرفة المباشرة هي تلك المعرفة المعطاة من خلال الفعل المباشر للعلامة، أي ما يتم تحيينه من خلال نقل معطيات الأولانية داخل الثانيانية. أما المعرفة غير المباشرة فهي تلك التي تدرك من خلال ما هو مفترض داخل العلامة، أي من خلال السياق البعيد للعلامة.

إن التمييز بين معرفتين سيقود بورس إلى التمييز بين موضوعين: أحدهما داخلي والثاني خارجي، وذلك في علاقتهما بفعل التمثيل. والموضوعان مختلفان من حيث الوجود ومن حيث نمط الاشتغال. فكيف سيتم التمييز بين الموضوعين؟ .

يحدد بورس طريقة هذا التمييز من خلال تناوله لمفهوم العماد. ولتوضيح هذا المفهوم نورد من جديد التعريف الذي يعطيه بورس

للعلامة: «فالعلامة أو الماثول شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية طريقة وبأية صفة. إنه يتوجه إلى شخص لكي يخلق عنده علامة موازية أو علامة اكثر تطورا. إن هذه العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى. إن هذه العلامة تحل محل شيء: موضوعها. إنها تحل محله لا من خلال كل مظاهره، بل من خلال فكرة أطلق عليها عماد الماثول . . .»[12]. والعماد كما يبدو من خلال التعريف السابق هو طريقة معينة في التمثيل. وبعبارة أخرى، إنه انتقاء خاص يتم وفق وجهة نظر معينة، «إنه صفة للموضوع باعتباره منتقى بطريقة معينة بهدف خلق موضوع مباشر»[13]. فأنت عندما تنطق بكلمة أو جملة فإنك لا تحيل فقط على ما تود قوله مباشرة ولكنك، بشكل ضمني، تحيل على أشياء أخرى لا يتطلبها السياق الذي تريد أن تبلغ أحدا ضمنه شيئا ما.

إن العماد، على هذا الأساس، يحدد من جهة ما هو متحقق داخل العلامة وذلك بطريقة مباشرة كانتقاء خاص يترك بالضرورة سلسلة أخرى من المعارف جانبا. ويحدد من جهة ثانية، بطريقة غير مباشرة هذه المرة، ما هو مفترض وقابل للتحقق ضمن سياق محدد، أي داخل دائرة إبلاغية تفترض وجود باث ومتلق.

وبناء عليه يمكن، حسب بورس، أن نحدد موضوعين يتطابق كل واحد منهما مع نوع من أنواع المعرفة المحددة سابقا: موضوع مباشر وموضوع دينامكي:

---

(12) بورس المرجع السابق ص 121

(13) Eco (Umberto) Lector in Fabula. Ed. Grasset, 1985 p 36

- الموضوع الأول معطى داخل العلامة كمعلومة جديدة تضاف إلى سلسلة المعلومات السابقة. أي ما يدرك بشكل مباشر دون حاجة لاستحضار شيء آخر.

- الموضوع الثاني ضمني ومعطى بطريقة غير مباشرة. إنه حصيلة سيرورة سميائية سابقة يسميها بورس التجربة الضمنية (expérience collatéralle).

ولتوضيح هذا التمييز بين الموضوعين يعطي بورس المثال التالي:

الشمس زرقاء

إن هذه الجملة حسب بورس تحتوي على معرفتين (موضوعين): هناك أولا الموضوع "شمس"، فهذه "الشمس" نعرف عنها أشياء كثيرة قبل تحققها داخل هذه الجملة: إنها نجم لها موقع محدد ودور محدد داخل منظومة بعينها، ونعرف ما قاله الفزيائيون عنها، وما قاله الشعراء، ونعرف عنها كذلك موقعها داخل الخرافات، ونحن على علم بمكانتها الدينية عند بعض الشعوب ... إلى غير ذلك من المعلومات التي لا يمكن تفسيرها إلا من خلال استحضار التجربة الإنسانية وتفاعلها مع محيطها الطبيعي.

إن هذه المعرفة ليست معطاة بطريقة مباشرة داخل العلامة، بل هي معرفة مفترضة فقط. فالمتلقي لهذه الجملة يحين - داخل سياق خاص - جزءا منها. أما ما تقوله الجملة مباشرة، أي عملية "إسناد الزرقة إلى الشمس"، فتلك معلومة جديدة أضيفت إلى باقي المعلومات الأخرى. وتبعا لذلك، فإن المعلومة هي ما يطلق عليه

بورس الموضوع المباشر، أما المعلومات الأخرى الضمنية، غير المباشرة فإنها تشكل الموضوع الديناميكي. (14)

إن التمييز بين موضوع مباشر وآخر ديناميكي هو طريقة أخرى للقول إن الواقع يتجاوز العلامة، وإن العلامة من خلال إمكاناتها الذاتية غير قادرة على إعطاء تمثيل كلي وتام للعالم الخارجي. فعملية التمثيل- بحكم هذا القصور- لا يمكن أن تكون إلا جزئية. إنها تترك جانبا سلسلة من المظاهر التي لا تستقيم داخل هذا التمثيل، ذلك أن هذا التمثيل يتم دائما داخل سياق خاص.

ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أننا أمام فعلين مختلفين يوجد أحدهما داخل السميوز، بينما يظل الثاني خارجها. «فإذا انطلقنا من السميوز، أي من شبكة العلامات التي تحيل دون توقف على علامات أخرى، فإن الموضوعين معا، المباشر والديناميكي، يعدان نتاجا للسميوز. فالموضوع الديناميكي يوجد هو الآخر داخل السميوز، أي داخل الثالث. إلا أنه على مستوى اشتغال كل موضوع على حدة، فإن الموضوع الديناميكي يؤسس، من خلال مثوله كتجاوز للعلامة، استقلال الموضوع عن العلامة». (15)

وهكذا يستطيع الماثول- من خلال الموضوع الديناميكي- استعادة كل العناصر المنفلتة من عملية التمثيل الأولى (لحظة تحديد الموضوع المباشر)، وسنكون حينها أمام زاويتين مختلفتين للنظر:

- الأولى تدرك ما هو ممثل داخل العلامة اعتمادا على عناصر

---

(14) Carontini, op. cit. pp. 30- 31

(15) Veron (Eléséo): La sémiosis et son monde; Langages 58 p 73

التجربة المشتركة فقط. فعندما تتحدث عن الشمس وفق المثال السابق، فإنك لا تتحدث عن أي شيء سوى عن هذا النجم الذي يسطع في السماء.

- الثانية تقتضي استحضار كل التجارب السابقة الكفيلة بإظهار ما هو ضمني داخل العلامة، كما كان الشأن في المثال السابق حيث استحضرنا كل المعلومات العلمية والأنتروبولوجية الخاصة بالشمس (سنعود إلى هذه النقطة بالذات في مناقشتنا للطريقة التي يحيل من خلالها الماثول على الموضوع).

ويمكن من هذه الزاوية توسيع دائرة العلامة لكي تشمل النص كله. فالنص - وفق نمط توزيع الموضوعات - يتحدد كتحيين مزدوج:

- تحيين مباشر وهو ما يسهم في تحديد تخوم النص ومثوله أمامنا ككون مكتف بذاته (ما يربط بين بياضين دلاليين).

-و تحيين غير مباشر، أي كل الإحالات النصية التي لا يمكن تجاهلها في أية قراءة، وهي المعارف التي يحيل عليها النص من خلال تكونه ذاته، وهو أيضا سلسلة النصوص التي يحيل عليها ضمنيا من خلال عناصر التحقق.

فما يسمى بالمعرفة الخارج نصية (أو المسكوت عنه) ليس سوى طريقة أخرى للقول إن النص يسقط خارجه - لحظة تشكله - سلسلة من النصوص القابلة للتحيين مع أدنى تنشيط للذاكرة المؤوِّلة، والموضوع الديناميكي في حالة النص الإبداعي، هو منطلق أي تحليل، فلكي تؤول عليك أن تعيد صياغة العلاقات.

وفي جميع الحالات، فإننا نكون أمام موضوعين: أحدهما مباشر وهو ما يشكل معطيات النص الظاهرة. وآخر ديناميكي، أي المعرفة المفترضة التي تؤسس، عبر وجودها، فعل التأويل.

المؤول

يعتبر المؤول ثالث عنصر داخل نسيج السميوز، وهو ما يحددها في نهاية المطاف. إنه عنصر التوسط الإلزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة. فلا يمكن الحديث عن العلامة إلا من خلال وجود المؤول باعتباره العنصر الذي يجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا. إنه هو الذي يحدد للعلامة صحتها ويضعها للتداول كواقعة إبلاغية.

إن هذه التحديدات الأولية ليست كافية للكشف عن العمق الحقيقي للمؤول. ذلك أن هذا المفهوم يعد من أشد المفاهيم غموضا داخل سميائيات بورس. فإذا كان بورس يعرفه بأنه «كل ما هو معطى بشكل صريح داخل العلامة نفسها في استقلال عن سياقه وعن الشروط المعبرة عنه»[16] فإن الدراسات التي أنجزت حول كتابات بورس ذهبت بهذا المفهوم في كل اتجاه. فأحيانا تضيق دائرته ليعين فقط الفكرة التي تسمح للماثول بالإحالة على موضوعه، وهو بهذا لا يختلف عن المدلول السوسيري (كما تصوره سوسير على الأقل). وأحيانا تتسع دائرته ليشمل الحقول الثقافية، أي فعل التسنين الذي تتم من خلاله عملية الإحالة، وهو بهذا يقترب من السنن الثقافي في مفهومه العام.

(16) بورس، المرجع السابق، ص 128

وسنحاول في هذه الصفحات أن نقدم سلسلة من التعاريف التي قد تساعدنا على تكوين تصور شامل عن مفهوم المؤول وطبيعته ووظيفته وموقعه داخل فعل السميوز.

ولعل أولى الملاحظات تكمن في أن كل التعاريف تؤكد طبيعته التوسطية: إنه ما يربط بين عنصرين، أي الشرط الضروري لاشتغال السميوز، » فهو عنصر توسطي يقوم بربط الماثول بموضوعه، ولكنه، في الآن نفسه، يبرز المسافة التي لا يمكن ملؤها أبدا بين الماثول والموضوع« (17). و لأنه "علامة موازية أو أكثر تطورا "، فإنه، في ضمانه للاحالة، يؤكد هشاشتها. فتصور البحث من جديد عن إحالة جديدة أمر وارد في كل لحظة ومع كل سياق (مع أي فعل تأويلي). ذلك أن الإحالة تخضع لتراتبية، ولا يشكل المؤول داخلها سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى.

وإذا كان المؤول يشير - من بعيد أو من قريب - إلى عملية التأويل التي تسمح للمتلقي بإدراك العلامة، فإنه لا يتطابق مع الشخص الشارح (l'interprète)، ذلك أن المؤول لا يشترط وجود الشخص الشارح، إنه يشكل فقط «الوسيلة التي يستعملها الشخص المؤول من أجل إنجاز تأويله. وهكذا يمكن أن يعطي شارحون كثيرون تأويلات مختلفة لنفس الشيء/ العلامة إذا كانوا ينطلقون من مؤولات مختلفة». (18)

وفي ضوء هذين التعريفين، فإن مفهوم المؤول يتطابق، داخل

---

(17) إيفرات دسمدت، نفسه ص 40

(18) نفسه ص 42

حقل السميائيات، مع مفهوم الثالثانية داخل نظرية المقولات. فإذا كانت الثالثانية تقوم بوصف الأول والثاني داخل علاقة، فإن المؤول بدوره يقوم بنفس الفعل. إنه يشتغل كقانون وقاعدة (يجب تحديد مضمون هذا القانون وهذه القاعدة). «إن المؤول باعتباره حدا ثالثا هو الذي يقوم - داخل السلسلة - بإدخال القاعدة أو المبدأ العام الذي يربط الحدود الثلاثة فيما بينها». (19)

إن القول بوجود القانون معناه الحد من اعتباطية الإحالة. فالمؤول يحيل على الموضوع وفق قانون. وإذا انتفى هذا القانون، فإننا سنعود إلى نقطة البدء: أي نعود إلى معطيات (أحاسيس ونوعيات) مجسدة في وقائع ولا حد لهذه الوقائع ولا ضابط ولا ذاكرة.

وبناء عليه، إذا كانت عملية الإحالة غير اعتباطية - فكل تأويل يتم داخل دائرة ثقافية محددة - فإن المؤول يقوم بإرساء قاعدة للتأويل. وبهذا المعنى، فإن «المؤول ليس حرا في تأويله، إنه يترجم إلى لغة معينة ما قيل في لغة أخرى»(20). إن محدودية التأويل هاته تقرأ بلغة أخرى كتحديد لحقل ثقافي يسمح بهذا التأويل ويرفض ذاك. من هنا، فإن انتقاء مؤول ما هو في نفس الوقت استبعاد لآخر، ما دام الانتقاء يحدد دائرة التأويل التي يتبناها الشخص الذي يقوم بعملية التأويل.

ستحيلنا هذه الملاحظات على تحديد آخر للمؤول. بحيث إذا

---

(19) نفسه ص 18

(20) Deledalle: Théorie et pratique du signe p 48

كان المؤول عنصرا توسطيا، فإن التوسط معناه إلغاء الطابع المباشر للعلاقة بين الإنسان ومحيطه الخارجي. ذلك أن أي تأويل (وأي سلوك) إنما يتم استنادا إلى معرفة مسبقة تحدد للشيء موضوع التأويل موقعه داخل سنن معين (قسم من الأشياء). وتبعا لذلك، فإن «مؤول علامة هو القيمة (أو مجموع القيم) التي يحتوي عليها الماثول لحظة إدراكه من طرف ذات ما (شارح بالقوة) داخل حقل (أو حقول) من المؤولات التي تمتلكها هذه الذات (إنه البؤرة التي تحددها) » (21).

إن تحديد المؤول باعتباره سلسلة من القيم التي تمتلكها الذات (المتلقي) وتحينها العلامة (الماثول)، دفع روبير مارتي إلى عقد مقارنة بين مقولة "حقل المؤولات" وبين "الحقل الثقافي"، ما دام كلا المفهومين يؤسس التأويل كفك لرموز ما تم تسنينه عبر التجربة الإنسانية بكافة أبعادها. إلا أنه يتدارك هذا الحكم ويميز بينهما. «فحقل المؤولات يبدو أكثر شمولية وأكثر جدلية في حدود أنه عنصر "كوني محسوس"، في حين يتحدد الحقل الثقافي كعنصر "كوني مجرد"، أي كون مفصول عن لحظة تشكله». (22)

إن التمييز بين الكوني المجرد (الحقل الثقافي) والكوني المحسوس (حقل المؤولات) هو تمييز بين سلسلة من المعارف (القيم) المثبتة داخل أشكال عامة تختزنها الذاكرة الجماعية التي يستحيل تحديد أصلها ولا لحظة تشكلها، وبين الفعل التحييني، أي

---

(21) Marty (Robert): La théorie des interprétants; Langages 58 p 37

(22) R .Marty: Théorie des interprétants, in Langages n 58, p 37

الفعل الذي يقوم، داخل هذه الذاكرة، بتحديد صيغة دلالية تعد نقطة نهائية داخل سيرورة تأويلية. وبعبارة أخرى، إنه يدخل التزمين والتفضييء اللذين يحيان ما ينتمي إلى "المفهومي" و"المجرد" و"العام" داخل وضعية إبلاغية محددة، أي داخل السياق الخاص.

وبناء عليه، فإن المؤول هو » العلامة المنتقاة داخل حقل العلامات / مؤولات ذات الامتداد اللامحدد. ويمكن، داخل هذا الامتداد، التمييز بين الحقل الثقافي (اللساني، الجمالي، الإيديولوجي) الذي أنتمي إليه، وبين الحقل الذي أحدده كوجود فضائي وزماني (هذا الفضاء وهذا الزمان) الذي يوهمني أنني أنفلت من العلامة، في حين أنني بؤرتها وأنني أنا أيضا علامة) [23].

إن التعريفين السابقين معا (تعريف مارتي وتعريف دولودال) يلتقيان عند نقطة أساسية هي اعتبار المؤول جزءا من حقل ثقافي. وبتعبير آخر، إن العلامة لا تدرك إلا من خلال استحضار الحقل الثقافي.

فإذا كان مارتي يميز بين "الكوني المحسوس" (حقل المؤولات) وبين "الكوني المجرد" (الحقل الثقافي)، فإن دولودال لا يقول شيئا آخر. فمن خلال التعريف الذي يقدمه للمؤول يتضح أن هذا المؤول علامة يتم انتقاؤها داخل حقل أعم وأشمل هو الحقل الثقافي بعناصره اللسانية والجمالية والإيديولوجية (الكوني المجرد). ففعل الانتقاء هو تحيين "للأنا" و"الهنا" و"الآن" (الكوني المحسوس).

(23) Deledalle, "Avertissement aux lecteurs de Peirce" , p .26

وبناء عليه، يمكن تحديد المؤول بأنه مجموع الدلالات المسننة من خلال سيرورة سميائية سابقة ومثبتة داخل هذا النسق أو ذاك. وبعبارة أخرى، إنه تكثيف للممارسات الإنسانية في أشكال سميائية يتم تحيينها من خلال فعل العلامة (أي لحظة تصور إحالة تشترط وجود قانون)، سواء كانت هذه العلامة لسانية أو طبيعية أو اجتماعية.

ومع ذلك، فإن هذا التعريف لازال في حاجة إلى تدقيق. فإذا كان التسنين فعلا لاحقا للتشخيص- فالأصل في السلوك الإنساني هو التشخيص- فإن فعل التأويل، باعتباره حالة ثقافية داخل السلوك الإنساني، يحتوي على تراتبية، وداخل هذه التراتبية يمكن تحديد سلسلة من القراءات الممكنة. ومن ثم لا يمكن الحديث عن مؤول واحد، بل عن سلسلة من المؤولات تعكس ما للدلالة من مستويات. وهذا ما سيقودنا إلى تحديد أنواع المؤول وتحديد طبيعة كل مؤول على حدة.

المؤول ومستويات الدلالة

إن التجربة العادية تدلنا على أن الامساك بالشيء يتم دائما عبر مستويات متعددة. فالذات المتكلمة تخلق، انطلاقا مما توفره هذه التجربة، أنساقا لمعان جديدة تتجاوز عبرها المعطى المباشر. وليس هناك من فعل تأويلي قادر على احتواء كل معطيات الموضوع ضمن نظرة شاملة وكلية. فنحن لا يمكننا أن نعطي واقعة ما تأويلا واحدا جامعا مانعا. فدخول المؤول، كعنصر ثالث، داخل سيرورة السميوز يسمح، من جهة، بإحالة الماثول على موضوعه، ولكنه،

من جهة ثانية، يقوم ب "إبراز الهوة الدائمة الفاصلة بين هذا الماثول وموضوعه " (إفرات-دسمنت).

وعوض أن ننظر إلى هذه المسافة بصفتها قصورا في فعل الإحالة وفعل التأويل أيضا، يجب أن ننظر إليها كضمانة على غنى التأويل وتجدده المستمرين. إن مستويات الإدراك هاته هي التي دفعت بورس إلى التمييز بين ثلاثة أنواع في وجود المؤول. وكل نوع يحدد مستوى دلاليا خاصا له طريقته في الوجود وطريقته في ضبط الإحالة. وهذه الأنواع هي: المؤول المباشر، المؤول الديناميكي، والمؤول النهائي.

المؤول المباشر

«إن المؤول المباشر هو المؤول الذي يتم الكشف عنه من خلال إدراك العلامة نفسها. وهو ما نسميه عادة بمعنى العلامة (. . .) إنه يتحدد باعتباره مُمَثلا ومُعبرا عنه داخل العلامة [24]. إن حدود تأويله مرتبطة بمعطيات الموضوع المباشر. وعناصر تأويله ليست سوى ما هو معطى داخل العلامة بشكل مباشر. وما ينتجه من معنى لا يتجاوز حدود التجربة المباشرة التي يتطلبها الإدراك المشترك. إن وظيفته الأساسية هي إعطاء الدلالة نقطة الانطلاق، أي إدخال الماثول داخل سيرورة السميوز. «ذلك أن المدلول الخاص للعلامة هو إحساس تنتجه هذه العلامة. فهناك دائما إحساس نؤوله في نهاية الأمر باعتباره

(24) Peirce : cité in :

Calvet de Magalhaes (Theresa): Signe ou Symbole; Introduction à la sémiotique de C S Peirce Ed Cabay 1981 p 174

دليلا على أننا فهمنا الأثر الخاص للعلامة، حتى وإن كان أساس الحقيقة فيه ليس صلبا » . [25] .

إن المؤول المباشر لا يقول أي شيء خارج الحدود التي ترسمها معطيات الموضوع بشكل مسبق. فالجملة (الواقعة بصفة عامة) تحتوي لحظة إنتاجها على معلومات أولية مفصولة عن أي سياق. إنها تتميز بالثبات و" الموضوعية" ، لأنها توجد خارج الشخص الذي يقوم بالتأويل. وهذا الافتراض الأساس هو الذي يجعل من مؤولين عديدين يختلفون في طريقة إنتاجهم للمؤولات الديناميكية ولكنهم يتفقون حول المنطلق الدلالي الأول. ويعد المؤول المباشر، بهذا المعنى، اللحظة البدئية داخل سيرورة تأويلية هي نظريا، حسب بورس، لامتناهية.

ففي المثال السابق " الشمس زرقاء" ، لا يتجاوز المؤول المباشر حدود القول: لقد أسندت صفة الزرقة إلى الشمس. إن هذه القراءة تكتفي بتحديد ما هو معطى بشكل مباشر، أي منفصل عن الذات، ولا دور لهذه الذات فيما هو موجود خارجها. فهاته الأشياء هنا لا أقل ولا أكثر، إنها موجودة ولا يقوم المؤول المباشر إلا بوصفها وتحديدها.

المؤول الديناميكي

«إن المؤول الديناميكي هو الأثر الفعلي الذي تحدده العلامة » أو هو » الأثر الذي تولده العلامة بشكل فعلي في الذهن » . [26]

---

(25) بورس ، المرجع السابق ص 130

(26) نفسه ص 174

وبعبارة أخرى، فإن المؤول الديناميكي هو كل تأويل يعطيه الذهن فعليا للعلامة.

انطلاقا من هذا التصور، فإن المؤول الديناميكي يُؤسس على أنقاض المؤول المباشر ولا يمكن أن يوجد إلا من خلال وجود الأول. فعندما يتخلص المؤول الديناميكي من مقتضيات المؤول المباشر، فإنه ينطلق نحو آفاق جديدة تضع الدلالة داخل سيرورة "اللامتناهي". إننا مع المؤول الديناميكي نخرج من دائرة التعيين لندخل دائرة التأويل بمفهومه الواسع.

إن الانتقال من المؤول المباشر إلى المؤول الديناميكي، معناه الانتقال من مستوي دلالي (معنى العلامة كما هو معطى بطريقة مباشرة) إلى ما يؤسس ديناميكية التأويل. إن صفتي "المباشر" و"الديناميكي" تحيلان على فعاليتين مختلفتين. فإذا كانت الأولى تشير - بشكل أو بآخر - إلى التعرف على ما هو موجود فعلا، أي ما يدخل ضمن المشترك بين المتلقين، فإن الديناميكية، على العكس من ذلك، تستدعي دخول الذات المتكلمة كمحفل يعطي التأويل كافة أبعاده. إنها تقوم باستحضار المخزون الثقافي الذي يحيط بالعلامة من كل الجوانب. وباختصار إنها تتطلب تحيين كل العناصر الكفيلة بإعطاء تأويل يتجاوز ما هو مثبت بشكل مباشر داخل العلامة.

ومن جهة ثانية، فإن دخول المؤول الديناميكي سيحول السميوز إلى سلسلة لا تنتهي من الإحالات: من علامة إلى علامة ضمن سيرورة تأويلية لا تتوقف عند نقطة بعينها. فمن «أجل تحديد مؤول

علامة يجب فعل ذلك من خلال علامة أخرى وهكذا دواليك. والنتيجة أننا أمام سيرورة سميوزية لامتناهية تعد - وبشكل مفارق - الضمانة الوحيدة لتأسيس نسق سميولوجي يوضح نفسه بنفسه، من خلال إمكاناته الذاتية ومن خلال أنساق قلب متتالية يشرح بعضها بعضا. «وقد يبدو هذا التداول اللامحدود للعلامات أمرا مقلقا، إلا أنه يعد، مع ذلك، الشرط الطبيعي للتواصل. وهكذا عوض أن نلغيه من خلال التذرع بميتافيزيقا المرجع، علينا أن نعمل على تحليله من خلال طبيعته تلك». (27).

إن سلسلة الإحالات هاته تجد تفسيرها في التعريف الذي يعطيه بورس لفعل السميوز ككل كما يعود إلى نمط اشتغالها. فالعالم عند بورس بكل موجوداته "الواقعية" و"المتخيلة" يشتغل كعلامات. وهذا العالم لا يدرك إلا باعتباره سلسلة من الأنساق، وكل نسق يضم في داخله نمطا مزدوجا من الإحالات: إحالات داخلية تخص النسق في ذاته، وإحالات خارجية تحيل الأنساق على بعضها البعض. ومن ثم فإن «النظر إلى السميوز كفعل لا ينتهي، يعد مساهمة في نظرية اللغة. ومن خلال هذا التصور ستبدو اللغة، من حيث خصائصها الذاتية، كممارسة إنسانية يشكل التاريخ، باعتباره زمنية إنسانية، أفق تحيينها. فحقيقة اللغة لاتكمن في الكشف عن كون مرجعي أو ذهني معطى بشكل نهائي. إن اللغة ليست خزانا ولكنها إنتاج، والمعنى لا يوجد خارج اللغة، بل يوجد في فعل الإبلاغ نفسه، أي في الكلام وفي الإنتاج. وغياب مؤول نهائي،

Eco (Umberto): La structure Absente, Ed, Mercure de France, pp. 66 - 67 (27)

عوض أن يشكل إحباطا دائما، فإنه يشكل الشرط الأساس لإمكان فعلي للغة بصفتها واقعة إنسانية. (28)

كيف تتم الإحالة إذن من المؤول بأنواعه وبين الموضوع بأنواعه؟ وبعبارة أخرى، كيف ينتقي المؤول موضوعاته وما هي مقتضيات هذه الإحالة داخل سيرورة التأويل اللامتناهية؟

إذا كان المؤول الدينامكي هو سيرورة تدليلية لامتناهية، فإن هذه السيرورة تتطور، في علاقتها بالموضوع، في اتجاهين، وذلك وفق منطق الإحالة من ماثول إلى موضوع.

فإذا كان المؤول هو أداة الربط الأساسية بين عنصرين، فإن العلاقة التي يقيمها الماثول مع موضوعه قابلة للتغير وفق ما إذا كان الموضوع مباشرا أم ديناميكيا. ويمكن أن نحدد سلسلة العلاقات والترابطات بين الموضوع والمؤول على الشكل التالي:

- إذا كان الموضوع مباشرا وكان المؤول مباشرا، فإن القراءة لا تتجاوز حدود ما هو معطى، "فالشمس زرقاء" تقرأ فقط كموضوع أول: شمس = نجم، موضوع ثان زرقاء= لون، أسندت الزرقة إلى الشمس.

- أما إذا كان الموضوع مباشرا والمؤول ديناميكيا، فإن هذا المؤول لا يأتي إلا بالعناصر التي لها علاقة مباشرة مع العلامة. وبتعبير آخر، فإن المؤول الديناميكي لا يأتي إلا بالمعلومات التي تفسر إسناد صفة الزرقة إلى الشمس. وسيكون التأويل منحصرا في:

(28) Carontini نفسه ص 27

هل الأمر يتعلق باستعارة تعبر عن الحالة النفسية للب؟ أم يتعلق بطريقة تصويرية للقول إن الجو غائم (كارونتيني). وفي هذه الحالة فإن المؤول الديناميكي يكون من طبيعة افتراضية (abduction).

- أما إذا كان الموضوع ديناميكيا وكان المؤول ديناميكيا، فإن هذا المؤول سيغرف معلوماته من السياق السابق للموضوع. وفي هذه الحالة سيشير المؤول إلى كل المعلومات السابقة، مثل المعارف الأسطورية والعلمية والدينية والخرافية القادرة، بهذا الشكل أو ذاك، على تفسير فكرة إسناد الزرقة إلى الشمس.[29] وبما أنه يستدعي ما يسميه بورس بالتجربة المحيطة، فإن المؤول الديناميكي في هذه الحالة يكون من طبيعة استقرائية (induction).

وفي ختام هذه الفقرة، سنحاول تقديم ملاحظتين أساسيتين: تتعلق الأولى بالفرق الموجود بين المؤول المباشر والمؤول الديناميكي من جهة، وبين الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي من جهة ثانية. وتتعلق الثانية بمستويات الدلالة كما تحددها مقولتا المؤول المباشر والمؤول الديناميكي وعلاقة هاتين المقولتين بتصورات أخرى حول نفس الموضوع.

ففيما يتعلق بالملاحظة الأولى، فان التغاضي عن التمييز بين المقولتين سيؤدي حتما إلى كثير من سوء الفهم، نتيجة وجود تداخل (ظاهري فقط) بين الموضوع والمؤول، في حين أنهما مختلفان اختلافا جذريا. ويمكن تحديد هذا الاختلاف في نقطة مركزية تتلخص في كون الموضوع يعود إلى معطيات موجودة قبل تدخل الشخص المدرك، وهذه المعطيات قابلة للوصف بشكل مباشر كما

(29) نفسه ص 32

هو الشأن مع الموضوع المباشر، وبشكل غير مباشر كما هو الشأن مع الموضوع الديناميكي. إن الموضوع على هذا الأساس ينظر إليه كسلسلة من المعطيات الموجودة خارج فعل التأويل وسابقة عليه.

أما المؤول فهو الأداة التي يتم عبرها الكشف عن هذه المعطيات. وبعبارة أخرى، إنه زاوية النظر التي تجعل هذا القارئ يدرك هذه المعطيات في حين تغيب عن قارئ آخر. فنفس المعطيات الموجودة داخل نص ما قد تولد سلسلة من القراءات التي تتراوح بين القراءة السطحية والقراءة العميقة. وبكلمة واحدة، إن الأمر يتعلق بالتمييز بين المعطيات الموصوفة وبين الفعل الواصف.

أما الملاحظة الثانية فتعد امتدادا للأولى. فالتمييز المشار إليه، سيقودنا إلى تناول النقطة الثانية، وفي ضوء نتائجه يمكن الانتقال إلى عقد مقارنة بين تصور بورس والتصورات الأخرى التي تناولت نفس القضية.

فإذا كنا قد حددنا المؤول كقراءة أو زاوية نظر، فسيكون بإمكاننا أن نرد المؤول المباشر إلى مقولة التقرير (dénotation)، ونرد المؤول الديناميكي إلى مقولة الإيحاء (connotation) كما صاغهما هلمسليف (Hjelmeslev) وطورهما واستثمرهما بارث (Barthes) في تحليلاته المتعددة. ذلك أن التقرير يعرف كمعنى مباشر، أي كسلسلة من القيم التي تعد عناصر أساسية في تحديد دلالة لفظ ما، ويعرف الإيحاء كسلسلة من القيم التي تنضاف إلى ما هو أساسي داخل هذا المعنى.[30]

---

(30) انظر مثلا:

Gary-Prieur (Marie-Noel) : La notion de connotation (s) Littérature n 4

المؤول النهائي

إذا كان المؤول الديناميكي هو المسؤول عن الدلالة لأنه هو الذي يوفر المعلومات الضرورية لعملية التأويل بحصر المعنى، فإنه يقوم في نفس الوقت بإدماج الدلالة داخل سيرورة اللامتناهي. فالسيرورة السميائية هي سلسلة من الإحالات اللامتناهيةالتي لا يمكن، نظريا على الأقل، أن تتوقف عند نقطة بعينها. ذلك أن كل تعيين هو في نفس الوقت تكثيف للفعل في أشكال تحمل في داخلها إمكان تحققها جزئيا أو كليا. «إلا أنها تعد في الممارسة سيرورة محدودة ونهائية. إنها تختصر داخل العادة، العادة التي نملكها في إسناد هذه الدلالة إلى تلك العلامة داخل سياق مألوف لدينا». (31).

وبناء عليه، فإن وظيفة المؤول النهائي هي إيقاف حركية هذه السيرورة في أفق تحديد دلالة ما داخل نسق معين. إنها الرغبة في الوصول إلى دلالة معينة انطلاقا من سيرورة تدليلية. ومن هنا يكون المؤول النهائي هو ما تريد العلامة قوله أو ما تستدعيه، أي ذلك «الأثر الذي تولده هذه العلامة في الذهن بعد تطور كاف للفكر»(32). فداخل سيرورة تأويلية معينة يجنح الفعل التأويلي إلى تثبيت هذه السيرورة داخل نقطة معينة تعد أفقا نهائيا داخل مسار تأويلي يقود من تحديد معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر) إلى إثارة سلسلة من الدلالات (مؤول ديناميكي) إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي).

---

(31) إيفرات دسمدت المرجع السابق ص 42

(32) Calvet de Magalhaes نفسه ص 174

ويعد هذا الأفق شكلا نهائيا لهذه السيرورة. «فعندما يقول متحدث ما " أتكلم عن المؤول بالمفهوم البورسي للكلمة " فإنه يوضح للمستمع، الذي يعرف نظرية بورس، السياق الخاص الذي تنتمي إليه هذه الكلمة بهدف إثارة المؤول المنطقي النهائي»[33].

إن هذا التحديد يفترض أن وجود المؤول رهين بالسياق الخاص. والسياق الخاص هو وحده الكفيل بتحديد " تأويل نهائي " إذا جاز التعبير. وبعبارة أخرى، فإن السيرورة التأويلية تقلص من إمكاناتها عندما تحدد لنفسها اختيارا يعتبر مسارا تأويليا يقود إلى تحديد شكل تستقر عليه الدلالة "النهائية".

ومن جهة أخرى يجب التأكيد أن كلمة " نهائي " لا تعني – لا من قريب ولا من بعيد – النهائية داخل الزمن، بحيث إن الدلالة التي يحددها المؤول النهائي ستشتغل كدلالة كلية وشاملة وأبدية تتحدى الزمان والمكان. فالمؤول النهائي هو كذلك داخل سيرورة بعينها، أي داخل سلسلة الإحالات التي يفترضها نسق دلالي ما، ذلك أن ما يتم تثبيته كدلالة نهائية، قد يصبح نقطة انطلاق لسيرورة جديدة من الإحالات. إنه ينتج سلسلة من التسنينات التي تدرج التأويل داخل مسارات معينة، وكل مسار يملك قوانينه (سياقه) الخاصة في الإحالة وفي إنتاج المعاني. «فالعادة تجمد مؤقتا الإحالة اللامتناهية من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنى للمتكلمين الاتفاق سريعا على واقع سياق إبلاغي معين. إن العادة تشل السيرورة السميائية، إنها عالم " الأفكار الجاهزة " . ولكن العادة هي وليدة أفعال علامات

(33) إيفرات دسمدت نفسه ص 42

سابقة. إن العلامات هي التي تؤدي إلى تدعيم أو تغيير العادات»[34]. فالعلامة عندما تعين، وعندما تنهي مسارا تأويليا تموت، وموتها يخلق العادة، والعادة هي ما تتركه العلامة بعد موتها.

إلا أن هذا المؤول ليس من طبيعة واحدة، إنه ينتج آثارا معنوية مختلفة ومتفاوتة. فبما أننا » نؤول دائما وفق غايات خارج سميوزية»، [35] فإن المؤول قد ينتج دلالات تختلف من غاية إلى أخرى. وهكذا فإن بورس يقسم هذا المؤول إلى ثلاثة أقسام مرتبطة جميعها بالأحكام المنطقية التي يستند إليها الفكر الإنساني من أجل إنتاج معارفه.

- **مؤول نهائي رقم 1**، ويشكل عنده عادة عامة أي مجموعة من القيم والأحكام العرفية والتقاليد والعادات. فكل عادة ليست سوى تكثيف لسلسلة من السلوكات المتشابهة التي تتكرر في الزمان وفي المكان. وتكرارها هو الذي يحولها إلى قالب جاهز، أي إلى أفكار مسكوكة تتخذ طابعا لازمنيا لكي تعود من جديد لتمارس سلطتها على أنواع السلوك الفردي. فالسلوك الفردي يخضع - في تحققه - لنموذج عام تثبته التجربة الجماعية لكي تنتج التطابق بين الفرد والمجتمع. وبناء عليه، فإن المؤول النهائي هو ميدان الإيديولوجيا.

- **المؤول النهائي رقم 2** يعتبر عادة مخصوصة، إنه يشكل المعرفة التي يستند إليها شخص ما في تخصص ما من أجل إصدار

---

(34) نفسه ص 42

(35) أمبيرتو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثاقفي العربي، بيروت ، 2000، ص 131.

حكم أو إجراء تجربة. إنه مؤول خاضع للمراقبة، ويمكن التأكد من صحته أو من خطئه، على عكس المؤول النهائي رقم "1" الذي لا يمكن مراقبته، ولا يمكن أن يخضع للتدقيق العلمي (من يستطيع إقناع مجموعة بشرية ما بأن هذه العادة أوتلك عادة فاسدة ؟).

- **المؤول النهائي رقم 3** ويعتبر مؤولا نسقيا، فهو مفصول عن أي سياق، ويوجد خارج أي تحديد عرضي، إنه يعود إلى الأحكام الفلسفية والنظريات المنطقية الكبرى. فلكي يوجد لا يحتاج هذا المؤول إلى سياق خاص.

إن أنواع المؤول هاته تعد، في واقع الأمر، نقطة إرساء دلالية مصدرها مؤول دينامیکي سابق. «وهكذا إذا كانت التجربة تقودنا افتراضيا من المؤول الدينامیکي رقم (1) إلى المؤول النهائي رقم (1)، وتقودنا قياسيا من المؤول الدينامیکي رقم (2) إلى المؤول النهائي رقم (2)، فإن المؤول النهائي رقم (3) لا يحتاج إلى أي مؤول دينامیکي، فهو خارج السياق. إنه لا يستدعي أية تجربة لكي يوجد. إنه استنباطي، كما هو الشأن مع الأنساق الشكلية الكبرى» [36].

وكما يبدو من خلال هذه التحديدات الخاصة بالعلامة ومكوناتها ونمط اشتغالها، فإن السميوز، في تصور بورس، تتأرجح بين قطبين متقابلين. فهي من جهة تحيل على لانهائية الإحالات، كما يبدو ذلك من خلال فعل المؤول الدينامیکي. وهذا ليس غريبا في فكر بورس. فعن هذا التصور انبثقت إحدى الأفكار الهامة

---

(36) Deledalle : Théorie et pratique du signe p 120 - 121

القائلة " «بأن كل فكر هو فكر ناقص ويحتوي على الضمني والمحتمل الذي يفترض فكرا آخر» [37]. فسلسلة الإحالات هاته هي ما يجعل من الفكر مستعصيا على الضبط والإمساك. فكلما اقتربت الذات من فك لغز فكري ما لاح في الأفق فكر آخر يحتاج إلى تمثيل جديد وهكذا دواليك.

ومن جهة أخرى تحيل هذه السميوز على ضرورة إقفال السلسلة وإقامة صرح للمعنى يقود إلى إنتاج معارف متطابقة أو منسجمة مع التقاليد الثقافية لمجموعة بشرية ما. فنحن نؤول عادة " انطلاقا من وجود غايات نفعية " تطمئن إليها الذات. «فالغاية من هذه السيرورة (سيرورة المؤولات) هي إقامة معنى، أي إسناد موضوع إلى الماثول» [38].

إن السميوز في الحالتين معا تعد ضمانة على انفلات العلامة من ربقة الوصفي والتعييني والمباشر، وارتمائها في أحضان اللامحدد واللايقيني، وذاك هو الإسهام الحقيقي الذي جاء به بورس في نظرية التأويل.

(37) Joseph Chenu : Peirce, Textes Anticartésiens, éd Aubier, 1984, p 92.

(38) Marty (Robert) : La théorie des interprétants; Langages 58 p 39.

الفصل الثالث

التوزيع الثلاثي للعلامة

إن العلامة، كما سبق أن رأينا، تضع للتداول ثلاثة عناصر: ماثولا يقوم بالتمثيل (أول) وموضوعا للتمثيل (ثان) ومؤولا يضمن صحة العلاقة بين الماثول والموضوع (ثالث). ولا يمكن أن يستقيم وجود أية سيرورة سميائية إلا من خلال وجود هذه العناصر الثلاثة التي تشكل في تضافرها السيرورة التي يطلق عليها بورس السميوز؛ والسميوز هي المدخل الرئيس من أجل إنتاج الدلالات وتداولها. وهذه العلاقة هي من الجدة والأصالة لدرجة أنها تحيلنا على سيرورة تدليلية لا متناهية تفترض، من جهة، أن سلسلة الإحالات لا يمكن أن تتوقف نظريا عند نقطة محددة، فالماثول يحيل على موضوع عبر مؤول، ليتحول هذا المؤول إلى ماثول جديد يحيل على موضوع آخر عبر مؤول جديد وهكذا إلى ما لانهاية. فإذا كان بالإمكان تصور المنطلق البدئي لهذه السيرورة، فإن نقطته النهائية غير محددة. فلا شيء يستطيع أن يوقف سلسلة الدلالات التي تطلق عنانها حركة التمثيل الأول.

إلا أن هذه العلاقة تفترض، من جهة ثانية، أن كل عنصر داخل هذه العلاقة الثلاثية يتحول بدوره إلى علامة قادرة على إنتاج بنية تستوعب هذا التوزيع وتغنيه. فبالإمكان عزل كل عنصر من هذه

العناصر الثلاثة والنظر إليه في ذاته. وهنا أيضا ستكشف لنا نظرية المقولات عن قيمتها الاستكشافية الأصلية، حيث لا تكتفي هذه المقولات بتقديم تحديدات قصوى تضع العلامة بديلا كليا لما يوجد خارجها، بل تخضع العلامة ذاتها إلى تقسيمات فرعية ستمكننا من إغناء رؤيتنا لمناطق متنوعة في إدراك ما يحيط بنا.

وهكذا فالمكونات الثلاثة (الماثول والموضوع والمؤول) يمكن أن يُنظر إليها في ذاتها من زوايا ثلاث : زاوية المعطيات النوعية الشعورية (الأولانية) وزاوية التحقق المفرد (الثانيانية) وزاوية القانون العام (الثالثانية).

ومن هذا المنطلق يمكن تصور سلسلة من التقسيمات الفرعية التي تخضع لها العلامة لتنتج، مع كل توزيع فرعي، سلسلة من الآثار المعنوية الخاصة بالطريقة التي نتصور من خلالها الظواهر. فإذا عدنا إلى نظرية المقولات العامة، ونظرنا إلى كل مقولة من زاوية أولانيتها وثانيانيتها وثالثانيتها فإننا سنحصل على سلسلة من العلاقات القائمة على بناء ثلاثي تتوزع انطلاقا منه الأولانية إلى ثلاثة أقسام فرعية، ونفس الأمر يصدق على الثانيانية والثالثانية.

إن هذا المبدأ يحكم أيضا العلامة بعناصرها الثلاثة. فالماثول يمكن النظر إليه كأولانية وكثانيانية وكثالثانية. وهو نفس التقسيم الذي يخضع له كل من الموضوع والمؤول. استنادا إلى هذا، فإن «العلامات قابلة للتقسيم وفق ثلاث ثلاثيات :

- أولا وفق ما إذا كانت العلامة في ذاتها مجرد نوعية بسيطة أو وجودا واقعيا أو قانونا عاما.

– ثانيا وفق ما إذا كانت علاقة هذه العلامة بموضوعها تكمن في أن لها بعض الخصائص في ذاتها، أو تكمن في علاقة وجودية مع موضوعها، أو لها علاقة مع مؤولها.

– ثالثا وفق ما إذا كان المؤول يمثل هذه العلامة كإمكان، أو كواقعة، أو كعلامة عقلية.»(1).

وهكذا ووفق التصور البورسي لهذا التوزيع، فان الماثول يمكن أن يحيل على نفسه من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يكون علامة نوعية (qualisigne)، وفي الحالة الثانية يكون علامة مفردة (sinsigne)، أما في الحالة الثالثة فينظر إليه باعتباره علامة معيارية (légisigne).

ويمكن للماثول في مرحلة ثانية أن يحيل على موضوعه من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يشكل الموضوع أيقونا (icône)، وفي الثانية يشكل أمارة (indice)، أما في الثالثة فيُنظر إليه باعتباره رمزا (symbole).

ويمكنه في مرحلة ثالثة أن يحيل على المؤول من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يكون المؤول خبرا (rhème) وفي الثانية تصديقا (dicisigne) وفي الثالثة حجة (argument).

ولا تشكل هذه الثلاثيات تصنيفا مطلقا يجعل من كل ثلاثية تشتغل في انفصال عن الأخرى، بل الأمر خلاف ذلك. إذ يمكن

(1) C. P. Peirce : Ecrits sur le signe, p 138 - 139

تصور تأليفات جديدة تتكون عموديا من التقسيمات الفرعية الثلاثة. وهكذا يمكن أن نتصور تأليفا يجمع بين العلامة النوعية والأيقون وبين العلامة النوعية والأمارة. وكمثال على ذلك " فإن الإحساس المتولد عن عزف قطعة موسيقية يشكل أيقونا لهذه القطعة الموسيقية. ورائحة زهرة هي أيقون لهذه الرائحة » (2). وهكذا يمكن أن نستخرج علامة نوعية هي ذلك الإحساس الغامض والعام الذي يولده عزف تلك القطعة الموسيقية، وفي نفس الآن نحن أمام أيقون، ما دام العزف في ذاته لا يشبه إلا نفسه. ولنأخذ الآن كل ثلاثية على حدة لنحدد عناصرها وموقعها من العناصر الأخرى.

الثلاثية الأولى

العلامة النوعية

تتحدد العلامة النوعية عند بورس من خلال خاصيتها كنوعية أو إحساس عام. إنها نوعية تشتغل كعلامة. ولا يمكنها أن تشتغل كعلامة قبل أن تتجسد في واقعة ما. ولكن تجسدها لا علاقة له بطابعها كعلامة. (3) فكل النوعيات مفصولة عن سياقها، وكل الأحاسيس مفصولة عن أسناد تجسدها يمكن أن تشتغل كعلامة. فذلك الصوت الذي يمزق الظلام ولا أستطيع تحديد مصدره ولا سببه يشتغل كعلامة نوعية، وهذا اللون في ذاته مفصولا عما يجسده

---

(2) Nicole Everaert-Desmedt: Le processus interprétattif, Introduction à la sémiotique de C. S Peirce, éd Mardaga éditeur, 1990, p 53.

(3) نفسه ص 139

يشتغل كعلامة نوعية. إن هذه الأسناد لا تدل من خلال تجسدها في موضوع ما أو شخص ما أو مقام ما، وإنما تدل فقط من خلال أولانيتها، أي من خلال وضعيتها كنوعية أو كإحساس.

«فالإمساك بنوعية ما والتعرف عليها باعتبارها كذلك، أي جعلها تشتغل كعلامة نوعية غير ممكن إلا من خلال تأملها ككلية، أي كأول، أي عزلها عما يحيط بها، دونما اعتبار للظروف الزمانية والمكانية التي تظهر داخلها هذه العلامة [4]. فالنوعيات لا تشتغل كعلامات إلا من خلال أولانياتها. فلسنا في حاجة إلى تحديد أي شيء آخر لنحول إحساسا عاما أو نوعية عامة، أي إلى علامة، لأن الانتقال إلى شيء آخر قتل لهذه العلامة.

ولهذا فإن ذلك الإحساس الغامض الذي يستحوذ علينا ولا نستطيع تحديد مصدره يشكل في عرف بورس علامة نوعية. «فذلك الأعمى قد أدرك جيدا بريق اللون القرمزي عندما شبهه بصوت البوق»، [5] فخلق تداخلا بين أشياء لا تنتمي إلى نفس النوع، ويتعلق الأمر بالإمساك بجوهر عام وموغل في التجريد قد لا نتوصل أبدا إلى تحديد كنهه. إن هذا الخلط هو الذي يولد العلامات النوعية.

ويقدم لنا جيل دولوز تجسيدا رائعا لطبيعة هذه العلامات من خلال خلق حوار خلاق بين اللوحة والموسيقى، فرغم أن كال منهما ينتمي إلى سجل فني خاص له لغته وأدواته وطرقه في التعبير، إلا أنهما مع ذلك قد يحيلان على نفس الأحاسيس، وهي أحاسيس

---

(4) إيفرات دسمدت المرجع السابق ص 49

(5) Nicole Everaert-Desmedt: Le processus interprétattif, p 49

تشكل علامات نوعية في السجل السميائي لبورس. فالموسيقى في عرف دولوز قد «تحول قوى لاصوتية إلى قوى صوتية، وتحول اللوحة قوى لامرئية الى قوى مرئية. وأحيانا يتعلق الأمر بنفس القوى: الزمن المتميز بكونه لا صوتيا ولا مرئيا. كيف يمكن رسم أو إسماع الزمن ؟ وكيف يمكن تصوير قوى أولية كالضغط والسكون والجاذبية والانجذاب والإنبات. وعلى العكس من ذلك، قد تكون القوى اللاحسية لفن ما جزءا من معطيات فن آخر. فكيف يمكن رسم الصراخ أوالصوت مثلا ؟. وعكس ذلك، كيف يمكن إسماع صوت الألوان؟ » (6) وماهية الفن ليست سوى «الإمساك بهذه القوى داخل شبكة الرمزية وإسقاطها على شكل رموز. إن الأثر الفني هو دائما حصيلة محاولة تجسيد بعض القوى، وتجسيد القوى المحتملة: أي العلامات النوعية. » (7)

إن الإمساك بهذا النوع من العلامات والتعرف عليه يفيدنا كثيرا في فهم مجموعة من العناصر الفنية التي لا تنتمي إلى السجل اللغوي كالفوتوغوافيا والفنون التشكيلية والموسيقى. فهذه الفنون تعمل جاهدة على أسر طاقة غير مدركة من خلال تصنيف مفهومي واضح لكي تحولها إلى مادتها الرئيسة من أجل إنتاج دلالاتهما.

العلامة المفردة

إن الإحالة الثانية (إحالة الماثول على نفسه من خلال الثانيانية) تضع أمامنا نوعا جديدا من العلامات، ويتعلق الأمر بالعلامات

(6) Jilles Deleuze, cité par, Nicole Everaert-Desmedt: Le processus interprétattif, p 110

(7) Nicole Everaert-Desmedt : Le processus interprétattif , p 110

المفردة . وكما تشير إلى ذلك التسمية ، فإن الأمر يتعلق بعلامة مختلفة اختلافا جذريا عن العلامة السابقة . فالأولى عامة والثانية خاصة ، والأولى إمكان والثانية تحقق ، الأولى لا حد لها ولا فاصل ، أما الثانية فمحددة في الزمان وفي المكان . وهذا مايعبر عنه جليا التعريف الذي يعطيه بورس لهذا النوع من العلامات : «العلامة المفردة (حيث إن sin تدل على ما يحدث مرة واحدة فقط مثل simple , singulier باللاتينية semel) هي شيء أو حدث موجود فعلا يشتغل كعلامة . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا من خلال نوعياته ، بحيث إنه يستدعي نوعية أو بالأحرى مجموعة من العلامات النوعية . إلا أن هذه العلامات هي من طبيعة خاصة ، ولا تشكل علامة إلا من خلال التجسيد الفعلي (8) .

إننا مع العلامة المفردة ننتقل من النوعية منظورا إليها ككلية ، إلى الوجود الفعلي منظورا إليه كسياق خاص . فالسياقان الزماني والمكاني هما المولدان للعلامة المفردة . فهذا الشيء المعلق بهذه الطريقة على الحائط يشتغل كعلامة مفردة ، وتلك الجملة التي ينطقها زوج ما أمام زوجته " أنت طالق " تشتغل كعلامة مفردة . وكذلك الحكم الذي ينطق به القاضي في المحكمة . فهذه الوقائع تشتغل كعلامات مفردة لأنها محددة بسياق خاص ، وغياب هذا السياق ينزع عنها صفة العلامة . إنها من هذه الزاوية تجسيد لسلسلة من العلامات النوعية داخل سياق محدد . وبعبارة أخرى ، «فإن العلامة المفردة لا تشتغل كعلامة إلا في حدود تجسدها داخل واقعة

(8) بورس المرجع السابق ص 193

خاصة ومحددة ("الهنا" و "الآن ") ، إنها تشتغل كماثول لا من خلال العلامات النوعية ، بل من خلال الفردنة الخاصة والملموسة التي تمنح لهذه العلامات »[9] .

إن السياق الخاص هو نقيض الامتداد الذي تحيل عليه الحالات العامة . فالمسدسات كثيرة ، وحالات الطلاق كثيرة أيضا ، وما أكثر الأحكام التي يصدرها القضاة ، إلا أن ما يشكل العلامات المفردة حقا هو النسخة . فالنسخة هي المفرد والفريد والخاص . ولهذا فإن كل علامة مفردة هي أيضا نسخة لعلامة معيارية كما سنرى في الفقرة المقبلة . ولقد كان الرومنسيون يمجدون الحالات المفردة ويعتبرونها أساس إبداعهم . فهذه الوردة الملقاة على الجسر ، وهذا الوجه الحزين في هذه الزاوية من الشارع ، وذاك المسدس المعلق هنا على هذا الجدار ، هذه كلها حالات تنزع الشيء من امتداده والحد من رتابة المعاد والمكرر والمألوف لكي تمنحه خصوصية . إن كل علامة مفردة هي نسخة خاصة ، وحال دخولها إلى العام تصبح علامة معيارية .

العلامة المعيارية

إن الحالة الثالثة تنزاح بنا عن العام الغامض والمتسيب كما هوالشأن مع العلامة النوعية ، كما تنزاح بنا عن المفرد والخاص والمتحقق العيني . إن الحالة الثالثة تدرجنا ضمن القانوني العام . فالسند هو القاعدة والقانون . ولهذا فإن سند العلامة المعيارية هو القانون والقاعدة لا الشعور والنوعية ، ولا النسخة المفردة . إن

---

(9) Enrico Carontini: L'Action du signe, éd Cabay , Bruxelles, 1984, p 40

«العلامة المعيارية هي قانون يشتغل كعلامة. وهذا القانون هو في الأصل نتاج الإنسان، وكل علامة عرفية هي علامة معيارية وليس العكس]. إن العلامة المعيارية ليست موضوعا خاصا، ولكنها نوع عام، نوع يدل من خلال ما تم التعارف عليه، وكل علامة معيارية تدل من خلال تجسدها في حالة خاصة أطلق عليها نسخة» (10).

إن كل ما يشتغل كقانون عام، أي كقاعدة معترف بها جماعيا يشتغل كعلامة معيارية. فكلمات اللسان تشتغل كعلامات معيارية، وكل نسخة - أي كل تحقق لهذه الكلمة أو تلك في هذا السياق أو ذاك - تشتغل كعلامة مفردة. وبناء عليه، فكل علامة معيارية تحتاج، لكي تتجسد، إلى علامة مفردة. إلا أن وجود العلامات المفردة ليس شرطا ضروريا لوجود العلامة المعيارية. فإذا أخذنا حرف الجر " في " مثلا فإننا نصادفها مرات عديدة في الصفحة الواحدة، إلا أنها في كل مرة، أي في كل تحقق مختلفة عن بعضها البعض. وكذلك الأمر، مع الصوت " R " في الفرنسية، فإذا كان بالإمكان تصور صيغة أصلية تعتبر تمثيلا صوتيا أكمل لهذا الحرف على أساسه يتم التعرف على هذا الصوت في كل السياقات، فإن النطق الخاص، يختلف حسب الأفراد والمناطق.

الثلاثية الثانية

إن هذه الثلاثية الثانية تعد من أكثر ثلاثيات بورس انتشارا وذيوعا، بل يمكن القول أحيانا إن أعمال بورس السميائية اختصرت في هذه الثلاثية. وربما يعود ذلك إلى أن الأعمال التي أنجزت حول

(10) بورس المرجع السابق ص 139

الصورة كانت تتخذ من بعض تصورات بورس منطلقا لها. إضافة إلى ذلك، فإن هذه الثلاثية تعد من أكثر ثلاثياته استيعابا وأكثرها تمثيلا للموضوعات الواقعية. فسواء تعلق الأمر بالأيقون أو الأمارة أو الرمز، فإن هذه العناصر الثلاثة تحيل على أنماط كبرى في التفكير الإنساني، ما يتعلق بالتناظر (analogie) والتجاور والعرف والتسنين.

الأيقون

إن الإحالة في حالة الأيقون قائمة على التشابه. وهذا ما يقوله بورس صراحة حين يجعل من الإحالة قائمة على وجود عناصر مشتركة بين الماثول والموضوع. فالأيقون هو علامة تحيل على الموضوع بموجب الخصائص التي يمتلكها هذا الموضوع سواء كان هذا الموضوع موجودا أو غير موجود». [11] فلا وجود لأي تمييز، على الأقل في الأيقون الخالص، بين الماثول والموضوع الذي يحيل عليه. لذا «فالأيقون هو علامة تملك طابعا يجعل منها دالة حتى ولو غاب موضوعها. مثال ذلك خط بقلم الرصاص يمثل خطا هندسيا»[12] وبعبارة أخرى، فإن العلامة الأيقونية هي علامة تملك بعض خصائص الشيء الممثل (في تصور شارل موريس). إن الإحالة حسب هذا التعريف هي إحالة تلقائية وطبيعية. فالماثول يملك في داخله كل عناصر الشيء الممثل. فالصورة - كيفما كان نوعها - وكذا الرسم البياني وموضوعات العالم تشتغل كأيقونات.

---

(11) C . P . Peirce : Ecrits sur le signe , p 140

(12) بورس، نفسه ص 139

إننا مع العلامة الأيقونية لا نستطيع أن نميز بين الماثول والموضوع : إنهما متطابقان .

ويميز بورس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات :

- الأيقون/ الصورة، وهو كل الصور التي تحيط بنا والتي نودعها نسخة منا، والعلاقة هنا قائمة على وجود تشابه بين الماثول وموضوعه. فما تحيل عليه الصورة هو نفسه أداة التمثيل .

- الأيقون / الرسم البياني، وفي هذه الحالة نكون أمام علاقة أيقونية بين الماثول وموضوعه قائمة على وجود تناظر بين العلاقات التي تنظم عناصر الموضوع وعناصر الماثول، مثال ذلك البيانات التي تستعملها الإحصائيات، وكذلك النماذج النظرية في العلوم الدقيقة. (13)

- وهناك الأيقون / الاستعارة، وفي هذه الحالة نكون أمام شبكة من العلاقات المعقدة. فهي تشير إلى إلى الطابع التناظري القائم بين الماثول والموضوع من خلال الإحالة على عناصر مشتركة بين الأول والثاني، قد يتعلق الأمر بالخصائص وقد يتعلق بالبنية. مثال ذلك صورة شجرة صغيرة قد توحي بالطفولة. والتشابه هنا لا يتعلق بعناصر محسوسة ومشتركة بينهما بل يتعلق بخصائص مجردة كالطراوة والنضارة والعنفوان. . .

إلا أن هذا التشابه الذي يلمح إليه بورس يخلق الكثير من سوءالفهم. فهل هناك حقا تطابق بين الصورة والشيء الذي تحيل

---

(13) Enrico Carontini : L'Action du signe , p 42

عليه ؟ . رغم أن المقام لا يسمح لنا بتفصيل الحديث عن هذه القضية فسنقتصر على تقديم التصور الذي يقول به إيكو، وهو التصور الذي تبنيناه في مجمل دراساتنا حول الصورة.

إن إيكو يرفض رفضا مطلقا فكرة التشابه هذا. وعوض ذلك يقول بالتسنين المسبق الذي يتحكم في إدراك العلامات الأيقونية. فالأشياء التي تُرى وتُدرك بالعين، أي كل ما يشتغل كعلامات أيقونية، لا ينظر إليها في حرفيتها، وإنما يتم التعامل معها باعتبارها عنصرا منضويا داخل هذا النسق أوذاك. من هنا، فإن العلامات الأيقونية تشتغل - رغم كونها محكومة، ظاهريا على الأقل، بمبدأ التشابه- وفق سنن أيقوني يحدد درجة هذا التشابه ويَحُد من سلطة الإحالة المباشرة، ومن ثم يحدد نمط إنتاج وإعادة إنتاج عناصر التجربة الواقعية. فإدراك الواقع عبرالعلامة الأيقونية لا يتم انطلاقا مما تشتمل عليه هذه العلامة من عناصر قادرة على إحالتنا على تجربة واقعية، بل يتم عبر معرفة سابقة؛ إنها معرفة تمكننا في الآن نفسه من الإمساك ببنيتين : بنية إدراكية متولدة عما توفره العلامة الأيقونية كتمثيل ذهني عام، وبنية واقعية هي منطلق التمثيل وأصله. وهذا يعني أننا لا ننتقل آليا من الدال الأيقوني إلى ما يوجد خارجه، فنحن دائما في حاجة إلى وسيط يجعل الرابط بين الطرفين قادرا على توليد دلالة، أي قادرا على الانضواء تحت نسق يمنحه إمكانيات التدليل.

ويختصر إيكو طبيعة هذه الإحالة في عنصر واحد هو "سنن التعرف". فلا يمكن الحديث عن إدراك، ضمن عالم العلامات الأيقونية، إلا انطلاقا من وجود معرفة سابقة تمكننا من تأويل هذا

العنصر أو ذاك وفق انتمائه لهذه الدائرة الثقافية أوتلك. فحسب إيكو «هناك سنن أيقوني يقيم علاقة دلالية بين علامة طباعية وبين مدلول إدراكي مسنن بشكل سابق : أي هناك علاقة بين الوحدة المميزة داخل السنن الطباعي وبين الوحدة المميزة داخل سنن معنمي يعد إنتاجا لعملية تسنين سابقة على التجربة المدركة ». (14)

الأمارة

إن الماثول داخل العلامة الأمارية يحيل على موضوعه بحكم التجاور. فالأمارة علامة تثير انتباهك إلى وجود شيء ما عبر دافع ما. وهذا الدافع لا علاقة له بالتشابه فهو يتم بحكم علاقة مرجعية أشرنا إليها باعتبارها تجاورا. ولهذا السبب، فإن الأمارة تفقد مباشرة الطابع الذي »يجعل منها علامة إذا حذف موضوعها. أما إذا غاب المؤول فإنها لن تفقد هذا الطابع. » (15) وهذا ما يوضحه التعريف التالي الذي قدمه بورس للأمارة. فهي «علامة أو تمثيل يحيل على موضوعه لا من حيث وجود تشابه معه، ولا لأنه مرتبط بالخصائص العامة التي يملكها هذا الموضوع، ولكنه يقوم بذلك لأنه مرتبط ارتباطا ديناميا (بما في ذلك الارتباط الفضائي) مع الموضوع الفردي من جهة، ومع المعنى أو ذاكرة الشخص الذي يشتغل عنده هذا الموضوع كعلامة من جهة ثانية». (16) إن الانتقال من الماثول إلى الموضوع يتم بحكم التجاور الوجودي لا بحكم القانون أو التشابه. فالدخان دليل على

(14) انظر إيكو La structure absente ص 174 وما بعدها
(15) بورس المرجع السابق ص 140
(16) نفسه ص 158

النار، رغم عدم وجود أي تشابه بين الدخان والنار. إن الأمارات قد تكون طبيعية وقد تكون اجتماعية وقد تكون لسانية.

وعلى عكس الرمز مثلا، فإن الأمارة تحتاج إلى سند زماني مكاني هو الذي يحدد لها وجودها. فالدخان أو آثار الأقدام أو الأشياء التي يتركها المجرم في مكان الجريمة، لا يمكن أن تؤول باعتبارها أمارات إلا ضمن سياق زمكاني بعينه. من هنا كان للأمارة وظيفة مرجعية، فلقد نُظر إليها دائما باعتبارها الوسيط المحسوس بين الكائنات البشرية وبين الأشياء.

«وإذا كانت العلاقة الأيقونية بين الماثول والموضوع تعد شرطا أساسا لكل سميوز ولكل تواصل، لأنها تؤسس لعلاقة تواصلية بين الماثول وموضوعه، فإن العلاقة الأمارية لا تقل أهمية عن العلاقة السابقة داخل السميوز، لأنها تمكن من إبلاغ كل ما هو منفصل ومختلف وتكشف عن فحواه، بل يمكن القول إن هذه العلامة هي شرط إمكانية وجود التجربة ذاتها». (17)

لنتذكر، في هذا المجال، دورالأمارة في العرض المسرحي، فهي من خلال طبيعتها المرجعية تشتغل دائما باعتبارها ما يحيل على السيرورة السردية. ولهذا فموقعها داخل السميوز موقع أساس. بل يمكن أن نمضي إلى أبعد من ذلك. فاللغة الإيمائية (اللغة الجسدية بصفة عامة) قائمة في جزء هام منها على الأمارة. فغياب هذا البعد داخل التجربة الإنسانية معناه تحويل هذه التجربة إلى كيان أعمى وأخرس وفاقد لكل قدرة على التواصل.

(17) Enrico Carontini : L'Action du signe, p 44

وهنا أيضا يمكن أن نشير إلى إمكانية إعادة النظر في قدرة الأمارة على إنتاج دلالة ما استنادا فقط إلى إمكاناتها كعلاقة قائمة على نوع من التعليل بين الماثول والموضوع. فالمعرفة التي تمدنا بها الأمارة معرفة قائمة، شأنها في ذلك شأن المعرفة التي تأتينا عن طريق الأيقون، على وجود سنن يمكننا من تأويل الأمارة تأويلا صحيحا. ففي غياب معرفة خاصة بالآثار التي يمكن أن تتركها الأفعى على الرمل، لا يمكن للمتلقي أن يؤول هذه الآثار باعتبارها آثارا خاصة بالأفعى. فهذا المتلقي قد يخلص إلى القول إن الأمر يتعلق بـ " حادث طبيعي " على حد تعبير إيكو.

الرمز

إن الرمز ينحدر من طبيعة عامة ومجردة، إنه ينتمي إلى مقولة الثالثانية، فهو لا يستند إلى حدث ولا إلى نوعيات أو أحاسيس لكي يوجد، بل يكتفي بالإشارة إلى القانون والضرورة. ولهذا فإن العلاقة القائمة بين الماثول الرمزي وموضوعه لا تستند إلى التشابه ولا إلى التجاور، بل تستند إلى العرف الاجتماعي الذي يعد قانونا وقاعدة. ولهذا فإن «الرمز هو ماثول يكمن طابعه التمثيلي في كونه قاعدة تحدد مؤوله. فكل الكلمات والجمل والكتب وكل العلامات العرفية الأخرى تشتغل كرموز. فنحن نتحدث عن كتابة أو نطق كلمة "رجل" و لكننا في واقع الأمر لا ننطق ولا نكتب إلا نسخة أو تجسيدا لهذه الكلمة». [18]

فالرمز لا يمكن أن يكون رمزا إلا إذا كان تكثيفا لسلسلة من

---

(18) نفسه ص 161

النسخ السلوكية المتحققة. فلا يمكن للنسخة المفردة أن تكون رمزا ولا يمكن أن يؤدي السلوك الفردي إلى إنتاج رمز. إن الرمز يحتاج إلى زمن، والوظيفة الرمزية نشأت من تعدد التجارب وتنوعها وتكرارها أيضا. «إن الماثول الرمزي هو نفسه ذو طبيعة عامة أو قانون أو علامة معيارية. إنه ليس فقط عاما ومجردا ومحروما من أي سياق، ولكن موضوعه أيضا يجب أن يكون من طبيعة عامة : أي مفهوما». (19)

فإذا كانت علاقة الماثول بموضوعه داخل العلامة الأيقونية قائمة على التشابه، وإذا كانت هذه العلاقة داخل العلامة الأمارية قائمة على التجاور الوجودي، فإن العلاقة داخل العلامة الرمزية من طبيعة عرفية، فالأمم والشعوب تخلق، انطلاقا من تجربتها، سلسلة من الرموز تستعيد عبرها قيم تاريخها، فتسقط من خلالها المستقبل وتفهم من خلالها الحاضر.

إن للرمز دورا هاما في تنظيم التجربة الإنسانية. فلكي تُبلغ هذه التجربة وتصبح عامة وكونية تحتاج إلى أن تصب في أبعاد رمزية. «فالرمز يمكن الإنسان من التخلص من التجربة الظرفية والمباشرة، كما يمكنه من التخلص من الكون المغلق للتناظرات. فمن خلال الرمز تتسرب ذاكرة الإنسان إلى اللغة وعبره يدرج الإنسان رغبته ضمن أفق مشاريعه الخاصة». (20)

---

(19) Enrico Carontini : L'Action du signe , p 47

(20) بورس المرجع السابق ص 141

الثلاثية الثالثة

أما الثلاثية الثالثة فتخص البعد الثالث داخل التجربة الإنسانية، أي ما يتعلق بتلك العملية التي تمكن الكائنات البشرية من التواصل فيما بينها. وفي غياب الثالثانية لا يمكن الحديث عن أي تواصل. إلا أن الأمر هنا يطال البعد الثالث ذاته. فالمفهومية درجات، لذا فإن الثالثانية ذاتها يمكن النظر إليها في أولانيتها وثانيانيتها وثالثانيتها. في الحالة الأولى نكون أمام الخبر وفي الثانية أمام التصديق أما الحالة الثالثة فتضعنا أمام الحجة.

الخبر

«إن الخبر هو علامة تشكل في علاقتها بموضوعها علامة لإمكان نوعي، إننا ندركها باعتبارها تمثل هذا الشيء الممكن أو ذاك فقط. وبإمكان الخبر أن يوفر معلومات ولكنه لا يؤول باعتباره يوفر معلومات »[21] . وبعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بالبرهنة في حالتها الدنيا. فما دام الخبر يقتصر على ما تقدمه العلامة، فإنه لا يوفر معلومات للتأويل، ولكنه يشير فقط إلى العناصر الأولية التي تتوفر عليها العلامة. إنه ما يقابل الحد في القضية كما تتجسد في المنطق. فبالإمكان تصور فعل إسنادي يقوم فقط بإسناد صفة أو فعل إلى كيان ما: " أ " هو " س "، ويمكن أن يكون الفعل الإسنادي ثنائيا: " أ " يحب " س " . ويمكن أن يكون هذا الغنفل ثلاثيا: " أ " يعطي " س " لـ " ج " . ومن هذه الزاوية فإن الخبر يتطابق مع الفعل الأحادي.

---

(21) دولودال Théorie et pratiques

ولهذا فإن التأويل في علاقته مع المؤول الخبري لا يتجاوز حدود الإمكانات التي يوفرها الماثول. فإذا نطقت كلمة " حصان " أمام شخص لا يعرف الفرنسية وأردت توضيح ما أريد قوله من خلال هذه الكلمة، فإن الدلالة تدرك فقط من خلال ربط سلسلة من الأصوات (صورة سمعية) بصورة الحصان. وهذا ما دفع دولودال إلى اعتبار المدلول السوسيري حدا مطابقا للمؤول الخبري. فالمدلول كما صاغه سوسير لا يتجاوز حدود تعيين مفهوم ذهني عام مرتبط أشد الارتباط بما تدل عليه الكلمة استنادا إلى إمكاناتها الذاتية الأولى. [22]

التصديق

«إن التصديق هو علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة لوجود فعلي (. . .) إنها تستدعي بالضرورة خبرا كجزء منها لتؤول باعتبارها تشير إلى شيء ما»[23]، وعلى هذا الأساس، فإن العلامة التصديقية في حاجة، لكي توجد، إلى تحديد الماثول داخل وضعية ملموسة تستدعي علاقة بين حدين. فلا يمكن للمعنى أن يبقى في حدود ما يفرزه الماثول من معلومات أولية كعناصر لإخبار كاف. إن حالة التصديق تخطو خطوة إلى الأمام وتستدعي إسنادا ثنائيا : أ" يحب " س" . وفي هذه الحالة، وكما أوضحنا ذلك من خلال المثال السابق، عوض أن نرسم صورة للحصان نستطيع، على العكس من ذلك، أن نحدد للمستمع الذي لا يعرف العربية وضعية

---

(22) بورس نفسه ص 141

(23) Carontini المرجع السابق ص 48

ملموسة : حصانا داخل إصطبل أو حصانا في حلبة سباق أو في أي سياق آخر، سواء كان هذا السياق واقعيا أو استذكاريا أو إشاريا.

الحجة

«إن الحجة هي علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة قانون. وبعبارة أخرى، فان الخبر علامة تدرك باعتبارها تمثيلا لموضوعها من خلال طابعه المباشر، والتصديق هو علامة تدرك كتمثيل للموضوع من خلال وجود فعلي، والحجة علامة تدرك كتمثيل للموضوع من خلال طابعه كعلامة (. . .). إن الحجة هي ذلك الفعل الذهني الذي يحاول من خلاله الشخص الذي يحكم أن يقتنع بصحة قضية ما.[24] . واستنادا إلى الفعل الإسنادي السابق، فإن الأمر يحتاج إلى علاقة ثلاثية : "أ" يعطي "س" لـ "ج". فالبرهنة لا تعتمد فقط على ما يقدمه الماثول، بل تجنح إلى تجريد يمتح عناصر تأويله من مجموع السياق المرافق للعلامة. «إن الحجة تمكن من معرفة دلالة ماثول من خلال تحديده داخل العلاقة التي ينسجها مع العلامات الأخرى المنضوية تحت نفس السنن»[25]. ففي المثال السابق، قد نحتاج، لتوضيح كلمة "حصان"، إلى الاستعانة بالكلمات التي يعرفها هذا المستمع والتي قد تسمح له بمعرفة معنى كلمة حصان.

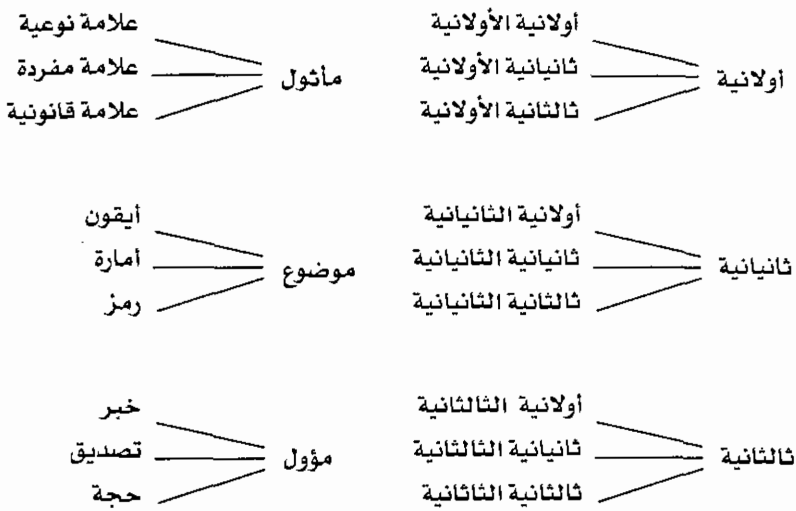
وفي ختام تحليلنا لهذه الثلاثيات الثلاث يمكن أن نقدم لوحة نستعيد من خلالها مجموع العلاقات القائمة بين العلامة بتفريعاتها

---

(24) Carontini المرجع السابق ص 49

(25) نفسه ص 52

الثلاثة وبين المقولات بتفريعاتهاالثلاثة أيضا : الثلاثيات في الشكل التالي :



وكما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا الفصل، فإن الأمر لا يتعلق بعلامات معزولة عن بعضها البعض، بل إن هذه العلامات تدخل في تأليفات جديدة فيما بينها لكي تشكل نمطا جديدا من العلامات. فبالإضافة إلى أن كل علامة يمكن أن تؤول من زوايا مختلفة باعتبارها رمزا وأمارة في نفس الآن، أو علامة مفردة وخبرا في نفس الآن ، بل يمكن أيضا أن نستخرج من خلال هذه التأليفات علامات قائمة الذات انطلاقا من الربط بين علامتين أو أكثر، وهذا ما يوضحه الجدول في الصفحة التالية الخاص بالأقسام العشرة للعلامة كما يتصورها بورس :

1-1-1	العلامة النوعية الخبرية	بقعة حمراء تحيل على الإحساس بالأحمر. وكل نوعية ينظر إليها كعلامة
1-1-2	العلامة المفردة الخبرية	علامة مفردة ومحددة سياقيا، تناظر مدرك بشكل مباشر : علامة طرقية تشير إلى " أشغال"
1-2-2	علامة مفردة تصديقية خبرية	شيء علامة يثير انتباهك مباشرة إلى شيء لأن له علاقة تجاورية معه ، مثال ذلك صرخة عفوية
2-2-2	علامة مفردة أمارية تصديقية	شيء علامة يثير انتباهك مباشرة إلى شيء آخر بحكم تأثير الأول على الثاني، مثال ذلك دوارة هواء
1-1-3	علاقة معيارية أيقونية خبرية	علامة نمطية تمثل تناظريا بنية موضوعها، مثال ذلك الرسم البياني في الإحصائيات.
1-2-3	علامة معيارية أمارية خبرية	علامة نمطية مرتبطة بموضوعها تجاوريا، مثال ذلك اسم علم ، أو اسم إشارة
2-2-3	علامة معيارية تصديقية	علامة نمطية توفر إخبارا حول موضوع ما : الضوء المنظم لحركة المرور
1-3-3	علامة معيارية رمزية خبرية	علامة نمطية تحيل على فكرة عامة (مفهوم ، قسم)
2-3-3	علامة معيارية رمزية تصديقية	علامة نمطية تحيل على فكرة أو قسم يصدق بشكل فعلي على قسم مثال : إثبات يعود إلى حالة فردية.
3-3-3	علامة معيارية رمزية حجاجية	علامة نمطية تحيل على الموضوع بواسطة مجموعة من العلامات النمطية المنظمة مثال : نظرية علمية. (26)

(26) Enrico Carentini: L'action du signe, éd Louvain-La-Neuve, Bruxelles 1984, p. 52.

الفصل الرابع

المؤول والسيرورة التأويلية

شددنا في الفصول الثلاثة السابقة على الطابع اللامنتهي لسلسلة الإحالات المتولدة عن عملية التمثيل التي تقوم بها العلامة. فلا يمكن قطعا تصور إحالة تكتفي بإنتاج ما يعيننا على تعيين شيء مفرد في العالم الخارجي بعيدا عن إيحاءات السلوك الإنساني. فالعالم الذي تحيل عليه العلامة عالم يُستوعب داخل سيرورة تدليلية تحيل على أكوان تأويلية بالغة التنوع. فبمجرد ما تتخلص العلامة من لحظة التأويل الأولى حتى تتطور في كل الاتجاهات. فالعلامة، في تصور بورس، تضع للتداول، كما رأينا ذلك في الفصل الثاني، ثلاثة عناصر: أول يحيل على ثان عبر ثالث هو نفسه سيتحول إلى منطلق لتوليد سلسلة من الإحالات الأخرى. فلا يمكن لهذه السلسلة من الإحالات أن تنتهي، نظريا على الأقل، عند نقطة بعينها. فكل إحالة تستدعي إحالة إضافية، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

إن العلامة، وفق هذا التصور، لا تنتج دلالة أحادية مكتفية بذاتها ترتاح إليها الذات، بل تولد سيرورة تدليلية بالغة الغنى والتنوع. فكل الإحالات ممكنة انطلاقا من فعل التمثيل الأول، أي الفعل الذي يضع الماثول ضمن حركة سميوزية تستند إلى المؤول باعتباره العنصر الحاسم في وجود الدلالة وتداولها.

ولقد أثارت فكرة الإحالات اللامتناهية الكثير من الجدل في أوساط الباحثين المهتمين بميدان التأويل وآلياته. فقد ذهب البعض إلى حد اعتبار بورس أول من دعا إلى تفكيكية متحررة من قيود الختام (دريدا)، في حين اعتبر البعض الآخر أن اللامتناهي لا يعين التأويل المطلق، بل يشير فقط إلى فكرة وردت مرارا عند بورس مفادها أن " معنى علامة ما هو ترجمتها في علامة أخرى وهكذا دواليك " . فلم يكن بورس يتصور إمكانية تحول هذه الفكرة إلى عقيدة تجعل من كل التأويلات أمرا ممكنا، ذلك أنه هو نفسه كان يتحدث، وهو يبرهن على لانهائية الإحالات، عن إمكانية وضع حد لهذه السيرورة من خلال الإشارة إلى فعل تداولي ينتجه السياق وتقبل به الذات المؤولة (ما يسميه بالمؤول النهائي).

وهناك من رفض هذا التصور جملة وتفصيلا واعتبره سيرورة منافية لطبيعة الفعل السميائي. فلقد استهجن بنفنيست مثلا هذا الأمر، في نهاية الستينات من القرن الماضي، وعده نوعا من المضاربة الفكرية التي لاتؤدي إلى أية نتيجة. ولهذا لم ير في هذه الإحالات التي يتحدث عنها بورس سوى حركة تشير إلى تهرب دائم من إرساء لحظة يمكن فيها للمعنى أن يستقيم ويستقر على قيمة دلالية تطمئن لها الذات. فقد أبدى استغرابا كبيرا، وهو يقدم بورس إلى الباحثين الفرنسيين، من وجود نسق سميائي فضفاض لا تحكمه حدود ولا ضفاف ولا تخوم. ففي رأيه لا يمكن لهذا النسق الذي يرى في العلامة أساس الكون كله، في التصنيف والتعريف والاشتغال، أن يكون منطلقا صلبا لسيرورة تدليلية تنتهي إلى إنتاج دلالات، وهي ما يشكل الغاية النهائية من وجود أي نسق. فمادام " الأول " يحيل على "

الثاني " عبر " ثالث " هو نفسه قابل لأن يتحول إلى " أول " يحيل على " ثان " عبر " ثالث " جديد، فإن إمكانية اكتفاء العلامة بذاتها أمر مستحيل. والخلاصة في نظره أن هذا «الصرح السميائي الذي شيده بورس لا يمكن أن يستوعب نفسه بنفسه. فلكي لا تندثر العلامة داخل هذا التوالد اللامتناهي، يجب الإقرار، في لحظة ما من لحظات الإحالة، بوجود اختلاف بين العلامة والمدلول»(1).

وقد يكون لهذا الاستغراب ما يبرره في كتابات بورس ذاته (تصوره لسميوز لامتناهية)، إلا أن وجود كيان علامي يتطور بشكل لولبي في اتجاه آفاق دائمة التجدد ضمن نسق "يوضح نفسه بنفسه" على حد تعبير إيكو، يعد، عكس ما تصور بنفنيست، دليلا على أصالة هذا الصرح السميائي وغناه. فما يبدو وكأنه سلسلة من الإحالات التي لا يحكمها ضابط ولا رادع، هو ما يشكل الإضافة الحقيقية التي تضمنها تعريف العلامة عند بورس. فمقولة المؤول - الحجر الأساس في أي تعريف للتدليل - يشكل نقطة الارتكاز الأولى في تعريف العلامة وفي وجودها وفي أشكال تجلياتها. فما دام التوسط (الأشكال الرمزية على حد تعبير كاسيرير)، هو المبدأ المركزي في إدراك العلاقة بين الذات وما يوجد خارجها، فإن المؤول هو المصفاة التي يتم عبرها تسريب الصور المتنوعة التي تتزيى بها الموجودات " الواقعية منها والمتخيلة، أوالقابلة للتخيل أو غير القابلة للتخيل " كما كان يحلو لبورس أن يقول.

---

(1) Benveniste (Emile): Problèmes de liguistique générale II, éd Gallimard 1974, p 45.

1- المقولات واللامتناهي والعلامة

ولا بأس أن نذكر ببعض الأسس التي سبق أن عالجناها في الفصول الثلاثة السابقة من هذا الكتاب. فالأمر يحتاج، من أجل إدراك العمق التأويلي الذي تشتمل عليه نظرية بورس في السميائيات، إلى إدراك المفارقة التي قد يحيل عليه التصور البورسي للدلالة. فهو، من جهة يتصور الدلالة باعتبارها إحالة لا متناهية، ومن جهة ثانية يقيد هذه الدلالة بغايات تداولية تقلص من حجم السميوز وترسم لها حدودا.

إن هذا التصور الخاص للعلامة ولنمطها في إنتاج الدلالة هو مدخلنا الرئيس للحديث عن مفهوم غني للتأويل انطلاقا - بالتحديد - مما أثار استغراب بنفنيست واندهاشه. وهو نفسه الذي سيتيح لنا فرصة استحضار نمط آخر للتدليل وذلك من خلال إقامة رابط بين مفهوم المؤول كما صاغة بورس وبين التصور القائل بأن إنتاج الدلالة يرتكز على خلق صلة وصل دائمة بين مادة مضمونية منظمة للأكوان القيمية العامة بشكل سابق عن أي تجل نصي أو غيره(مقولات الخير والشر والصدق والكذب)، وبين أشكال التجلي التي تعد أفقا دائم التجدد، أي كل السياقات الخاصة القابلة لاستيعاب هذه القيم المضمونية. ومن أجل توضيح ذلك سنعمل على تحديد مفهوم العلامة ضمن السيروة التي يطلق عليها بورس السميوز (sémiosis)، أي السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة وتداولها.

بدءا تجدر الإشارة إلى أن تكوين العلامة الثلاثي (ماثول - موضوع - مؤول) هو، هم كما تمت الإشارة إليه في الفصلين الأول

والثاني، استعادة للتقسيم الثلاثي الذي يحكم عملية إدراك الكون وضبط قوانينه. والأمر هنا يخص المقولات الفينومينولوجية المشار إليه في الفصل الأول. وبناء على هذا، فإن استيعاب كنه العلامة وطرق اشتغالها ونمط الإحالات داخلها مشروط بفهم إواليات الإدراك الذي يستند، عند بورس، إلى النوعية والأحاسيس (أول)، وإلى الموجودات الفعلية (ثان)، وإلى رابط الضرورة والفكر والقانون (ثالث). ومن السهل جدا وضع هذا الترابط ضمن منطق الإحالات الخاصة بالعلامة : فالأول يحيل على الثاني عبر أداة التوسط التي يمثلها الثالث. وبعبارة أخرى، فإن الأحاسيس والنوعيات هي معطيات عامة (أول) تُصب في الموجودات الفعلية (ثان) وذلك عبر قانون يضمن دوام الإحالة وتحديد وجودها استقبالا (ثالث).

إن هذا النمط الثلاثي في الإحالة هو أساس وجود العلامة. فالماثول (représentamen) يحيل على موضوع (objet) عبر مؤول (interprétant) وفق شروط الفعل المركب للإدراك. وهذا معناه النظر إلى الدلالة باعتبارها سيرورة في الوجود وفي الاشتغال، وليست معطى جاهزا يوجد خارج الفعل الإنساني.

ودون أن نقف طويلا عند نظرية المقولات وأسسها المعرفية(2)، يمكن القول، انطلاقا مما توفره هذه النظرية ذاتها، إن العلامة هي نمط خاص للتركيب يتم انطلاقا منه تنظيم الواقع وفق وجود أقسام من التمثيلات العلامية، هذا النمط الذي يغطي مناطق من المعيش

(2) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

والمحسوس والمتخيل. وإذا كان هذا التركيب، استنادا إلى ما قلناه سابقا، كيانا ثلاثيا هو الآخر، فما هو الشكل البنائي المؤسس للعلامة باعتبارها أداة مركزية في إنتاج الفكر والخروج من الذات للدخول في حوار مع "عالم الأشياء" ؟.

إن أول تعريف يخص به بورس العلامة هو تعريف مستوحى، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، من الترابط الثلاثي بين عناصر الإدراك الأساسية. فـ" الفكر (الذي هو من نظام الثالثانية) يستحوذ على الموجودات (التي هي من نظام الثانيانية) عبر الممكنات (التي هي من نظام الأولانية) [3]. وانطلاقا من هذا التوزيع، فإن « العلامة أوالماثول [4] هي شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء يعد موضوعها. وهذا "الحلول" لا يستوعب مجموع مكونات الموضوع، بل يتم عبر فكرة أطلقت عليها أحيانا "عماد" (fondement) الماثول» [5].

---

(3) فكرة لروبير مارتي توردها جويل ريتوري في Langages n 58 ص 34، وهو عدد خاص بسميائيات بورس.

R Marty : La théorie des interprétants , in Langages n 58.

(4) رغم أن بورس يستعمل عبارة "العلامة أوالماثول" فإن هناك فرقا واضحا بينهما. «فالعلامة هي الشيء المعطى كما هو، بينما يعين الماثول الشيء / علامة منظورا إليه داخل التحليل الثلاثي كعنصر داخل سيرورة التأويل» انظر:

Nicole Everart- Desmedt : Le processus interprétatif, introduction à la sémiotique de C S Peirce , ed Mardaga Editeur p 39.

(5) Peirce : Ecrits sur le signe p 121.

إن هذا التعريف يضعنا أمام هرم يتكون من ثلاثة عناصر تحكمها غاية واحدة، وتتوزع في التمثيل والتدليل وفق نفس الغاية ووفق قوانينها، أي التمثيل لشيء يمكن استحضاره من خلال شكل أو أشكال رمزية. ف "الماثول" هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء آخر يطلق عليه بورس "الموضوع"، وفق شروط خاصة في الإحالة يوفرها "المؤول" باعتباره الشرط الضروري للحديث عن سيرورة تدليلية قادرة على الاكتفاء بنفسها والتخلص من مقتضيات الـ"أنا" والـ "هنا" والـ"الآن". ويشكل المؤول داخل هذه البنية الفكر الذي يحول التجربة الصافية المحصل عليها عبر إحالة ماثول على موضوع، إلى نموذج تجريدي تستعاد عبره كل التجارب المشابهة.

وكما هو واضح من التعريف الذي يعطيه بورس للعلامة، فإن « الماثول مرتبط بثلاثة عناصر : عماد وموضوع ومؤول " (6). ويعد إدراك هذا الترابط بين أداة التمثيل وبين ما يوجد خارجها، المفتاح الرئيس لفهم نمط إنتاج الدلالة وفهم آليات التوالد التأويلي الناتج عن تصور سيرورة تدليلية يعتبرها بورس، نظريا على الأقل، غير قابلة للانكفاء على نفسها، وغير محصورة بحد بعينه.

وعوض أن يكون هذا الترابط مرادفا لحركة تعيينية ممتدة في أشياء تعد نقطة نهائية لفعل العلامة : "هذه الكلمة تدل على هذه الواقعة هنا والآن فحسب"، فإنها تحول، وتتحول عبرها " الأشياء " إلى علامات تقوم، وفق نفس شروط الإحالة الأولى، بخلق

(6) نفسه ص 121 Peirce : Ecrits sur le signe

سلسلة من الإحالات داخل الدائرة الخاصة التي تحتوي العنصر مصدر التدليل. وهكذا، فكل عنصر من عناصر العلامة قابل لأن يتحول إلى علامة، أي إلى عنصر استقطاب دلالي يثير حوله مسيرات متنوعة في الإحالة والتدليل، «فالعالم الذي تحيل عليه العلامات عالم يتشكل ويتحلل داخل نسيج السميوز»(7)

2- المؤول وإنتاج الدلالة

إلى هنا، نكون قد حاولنا رسم الخطاطة العامة التي تَمْثُل عبرها العلامة أمامنا باعتبارها كيانا ممتدا في نفسه أولا، فما دام كل عنصر قابلا لأن يتحول إلى نقطة ارتكاز تتجسد فيها الوقائع التدليلية، فإن النسق العلامي يتحول إلى آلة ضبط ذاتي منتجة لرقابة داخلية تتحكم في مجموع الدلالات الناتجة عن حركة دلالية ما. وهي كيان ممتد في ما هو خارجها ثانيا، فالعلامة تموت لحظة تجسدها في واقعة بعينها، فهي «تولد وتكبر وتموت في الأشياء (. . .) إنها تترك آثارا تسمى عادة (habitude) عندما يتعلق الأمر بالإنسان، وقانونا عندما يتعلق الأمر بالمجتمع أو بعلوم الإنسان». (8) .

وبعبارة أخرى، فإن فعل العلامة مدرج ضمن «سيرورتين متقابلتين ومتكاملتين في نفس الآن. سيرورة أولي منبثقة من القوانين الداخلية للغة ذاتها. ومن هذه القوانين تستقي اللغة معاييرها في الممارسة. وأخرى منبثقة من الشروط التاريخية الملموسة الحاضنة

---

(7) David Savan : La mémiosis et son monde , in Langages n 58, p 71.
انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(8) جيرار دولودال : "تنبيه لقراء بورس" ، ترجمة عبد العلي اليزمي ، مجلة علامات، العدد 8، ص 113.

للممارسة الدالة، وهي التي تبلور - على المستوى اللغوي- مجموع الإرغامات والتناقضات والمعايير الخاصة بهذه الممارسة». [9]

وسنحتاج، لتوضيح كل هذه القضايا، إلى العودة من جديد إلى تحديد مفهوم المؤول في أفق تحديد الغايات التدليلية المرتبطة به أولا، ثم تحديد موقعه من نظرية تأويلية ممكنة ثانيا، ثم تحديد موقعه كجسر رابط بين مادة مضمونية ما وأشكال تجسدها في نسخ خاصة ثالثا. وسنحاول القيام بذلك من زاوية قراءة موجهة تحديدا إلى النظر إلى المؤول باعتباره يشكل منطلقا لأي تحليل دلالي.

لقد أشرنا في الفقرة السابقة إلى أن عملية التمثيل العلامي التي تقود إلى خلق كيان رمزي يستعاض به عن " تجربة إنسانية ما "، تستدعي ماثولا (أداة للتمثيل)، ويرتبط هذا الماثول- لحظة قيامه بالإحالة على موضوع معين- ما يسميه بورس بالعماد. ومفهوم العماد هذا يشير إلى أن تمثيل واقعة ما هو تمثيل جزئي. فـ«العلامة تحل محل شيء يعد موضوعا لها. وهذا الحلول لا يستوعب مجموع مكونات الموضوع، بل يتم عبر فكرة أطلقت عليها أحيانا " عماد " (fondement) الماثول »(بورس).

ووفق هذه النظرة، فإن كل تمثيل ليس سوى انتقاء خاص يتم وفق جهة نظر معينة. إنه، بعبارة أخرى، « صفة للموضوع باعتباره منتقى بطريقة معينة في أفق خلق موضوع مباشر » [10].

إن مردودية هذا المفهوم لا تتحدد إلا لحظة التمثيل، أي لحظة

---

(9) Carontini (Enrico) : Action du signe p. 29

(10) Eco, Umberto: Lector in fabula, ed Grasset, 1985, p 36

انتقاء موضوع ما عبر إحالة خاصة، فالقول مثلا : "إن الشجرة مثمرة"، ليس سوى انتقاء لخصائص بعينها واستبعاد لأخرى، فلا يمكن القول إن هذا التمثيل قد استوعب، من خلال حركته تلك، مجموع الخصائص المميزة للشجرة في كليتها (الطول، الظلال، الأغصان الوارفة أو غير الوارفة، طبيعة الفاكهة، أو كل الإحالات الاستعارية التي يمكن أن تحيل عليها كلمة شجرة . . .). ولعل هذا التحديد هو الذي يجعل من الموضوع، أي ما يوجد خارج أداة التمثيل، كيانا أشمل وأعم من العلامة، بل إن العلامة، في محاولاتها الدائمة لاستيعابه، لا تقوم إلا بالكشف عن غناه وتطوره الدائم.

إن الإشارة إلى "جهة ما" يتم عبرها التمثيل، سيقود بورس إلى التمييز بين الفعل الخاص للعلامة مجسدا في واقعة قد تؤول وفق ما تخصنا به التجربة المشتركة. وفي هذه الحالة تتوقف عملية إدراك الواقعة عند حدود ما هو معطى بشكل مباشر من خلال العلامة ذاتها، وبين الفعل الضمني لهذه العلامة، وهو ما يمكن أن ينتج عن هذا التحيين الخاص من افتراض لمعارف أخرى قد لا يستطيع الشخص الذي يقوم بالتأويل استيعابها ضمن مسير تأويلي واحد محدود في الزمان وفي المكان.

إن هذا التمييز سيقودنا إلى الفصل، في ميدان المعارف الممثلة داخل العلامة، بين الشيء الموصوف وبين الفعل الواصف. وبعبارة أكثر دقة، الفصل بين الخطاب الواصف والخطاب الموصوف، أي الفصل بين ما يشكل مادة وضعت أصلا للتأويل (وكل تمثيل هو

بصيغة من الصيغ تأويل)، وبين الفعل الذي يفصل بين المستويات والمراتب وزوايا النظر. في الحالة الأولى يدرك الموضوع باعتباره معرفة (بأنماطها المتعددة) تخص واقعة ما (معرفة تشير إلى حجم هذه الواقعة ومكانها وتاريخها . . .) وبين المؤول باعتباره الفعل الذي يكشف عن هذه المعرفة ويحدد طبيعتها والمستويات داخلها.

وبالتأكيد، فإن المؤول ليس تأويلا، إنه مرتبط بالتأويل ويعد منطلقا له، إلا أنه أكثر عموما ويقتضي فعلا يختلف عما يمكن أن يحيل عليه التأويل. فالمؤول يقتضي وضعا لا يتطلب سياقا خاصا، ولا يتطلب شخصا يقوم بالتأويل. في حين يمكن اعتبار التأويل محاولة للإمساك بخيوط دلالة ما والدفع بها إلى نقطة نهائية تعد خاتمة لمسير تأويلي. ومع ذلك، فإن المؤول وأنواعه هو المدخل الرئيس إلى تحديد فعل التأويل، وعلى هذا الأساس يمكن تناول المؤول باعتباره ما يشكل نقطة إرساء أولى للمعنى.

واستنادا إلى هذا التمييز أيضا، سيعمد بورس إلى الفصل بين المباشر وغير المباشر في العلامة، أي بين موضوع معطى عبر فعل التحيين نفسه، وبين ما يمكن أن يدرك بشكل غير مباشر من خلال ما هو متحقق. ولأن الموضوع هو الذي يحدد العلامة (فهو أشمل وأعم منها)، فإن التفكير في موضوع ما، هو بالتأكيد تفكير في شيء نملك عنه معرفة سابقة. « فإذا قلتم إن هذا الموضوع موجود هنا في استقلال عن كوننا نفكر فيه، فإن كلامكم هذا لا معنى له». (11)

(11) Eliseo Veron : La sémiosis et son monde ,in Langages n 58, p 67 عبارة لبورس وردت في أحد المخطوطات ويستشهد بها الكاتب لتوضيح تعريف بورس "للواقع".

والخلاصة أن الموضوع لا يحضر في أذهاننا إلا عبر تلك المعرفة، كما لا يمكن الحديث عنه إلا من خلال هذه المعرفة. فـ« الموضوع هو المعرفة المفترضة التي تسمح لنا بالإتيان بمعلومات إضافية تخصه . . . فإذا كان هناك شيء ما يشير إلى معلومة دون أن يكون لهذه المعلومة أية علاقة - مباشرة أو غير مباشرة - بما يعرفه الشخص الذي يتلقاها، فإن الحامل لهذه المعلومة لا يسمى، في هذا الكتاب، علامة ». (12)

ولعل هذا ما دفع بورس إلى التمييز بين نوعين من الموضوعات (الأمر يتعلق في واقع الأمر بالتمييز بين نوعين من المعرفة) : يطلق على الأول الموضوع المباشر، وهو كذلك من حيث إن فعل الإدراك الذي يستدعيه لا يتطلب سوى عناصر التجربة المشتركة. والثاني دينامكي، وهو كذلك من حيث إنه يستدعي فعلا موازيا للأول لأنه حصيلة ما يسميه بورس بـ "التجربة الضمنية " (expérience col-latéralle)، أي تلك التجربة الناتجة عن سيرورة سميائية سابقة عن الفعل الذي يحقق الموضوع المباشر. وما يقوم بربط العلامة إلى هذا الموضوع أو ذاك هو السياق الخاص الذي تولد وتنمو العلامة ضمنه.

ولكي لا نتيه في المزيد من التحديدات التي تخص هذه المعرفة وزوايا النظر الكاشفة عنها، يمكن القول إن السر وراء هذا التوزيع المنهجي الدقيق يكمن في التصريح - وبورس لا يكف عن ذلك - بأن الموضوع يتجاوز العلامة، وأن التمثيل، بحكم الطبيعة الخاصة

(12) Peirce : Ecrits sur le signe p 123

للممارسة الإنسانية، قاصر عن استيعاب مجموع ما يوفره الموضوع ضمن دائرة تمثيلية واحدة، نتيجة لما يسميه بورس بـ "قصور العلامة" (l'imperfection du signe). فبما أننا مجبرون دائما، من أجل تحديد موضوع علامة، على استحضار علامة أخرى، فإن الموضوع لا يشكل حدا نهائيا لمتوالية إبلاغية ما.

إن ما يمكن أن يحدد هوية العلامة - أي ربط ماثول بموضوع ضمن سياق خاص - هو المؤول باعتبار وظيفته في الكشف عن المراتب والمستويات، فـ « نحن لا نستطيع أبدا معرفة الشيء في ذاته، إننا نعرف فقط العلامة التي هي دليل عليه، والعلامة على هذا الأساس كيان فضفاض في علاقتها بمؤولها، وهذا المؤول هو ما يحددها » [13] . ذلك أن » موضوع العلامة لا يمكن أن يكون إلا علامة أخرى. والسبب في ذلك أن العلامة لا يمكن أن تكون موضوعا لنفسها، إنها علامة لموضوعها من خلال بعض مظاهره[14].

وفي جميع الحالات، يمكن القول، استنادا إلى التحديدات السابقة، إننا أمام معرفة تنتشر في جميع الاتجاهات، ووجود العلامة هو وجود العنصر المنظم والمعد لهذه المعرفة. إن العلامة تقوم بمهمتها تلك في مرحلة أولى عبر إعداد موضوعات قابلة لاستيعاب وتنظيم هذه المعرفة (وهذا دليل آخر على أن الموضوع يتجاوز العلامة). وتقوم بذلك في مرحلة ثانية من خلال إدراج فعل للتأويل

(13) Théresa Calvet de MAGALHAES : Signe ou symbole , ed Louvain-Laneuve et Madrid , 1981, p 162

(14) Peirce : Ecrits sur le signe.

(مؤول) يقوم بالكشف عن هذه المعرفة ويحدد مستوياتها. ف «القانون وحده هو الضامن لواقعية الواقع : فالبعد المستقبلي ليس شيئا آخر سوى تعريف للثالثانية، ذلك " النمط الذي يكمن في كون الوقائع المستقبلية للثانيانية تتخذ طابعا عاما ومحددا، وهو ما أطلق عليه الثالثانية " (Peirce collecteds papers 1 . 25) (15). وهذا معناه أن الدلالة، باعتبارها سيرورة في الوجود وفي الاشتغال وفي التلقي، لا يمكن أن تدرك إلا عبر مستوياتها، أي أنماطها في التدليل وفي معرفة العالم وهو ما يحدد نمط إدراك الذات لعالم الأشياء.

إن "المعارف" المتولدة عن الإحالة " الصافية " (ماثول يحيل على موضوع خارج أي قانون أو فكر)، هي معارف تتيمز بالهشاشة والغموض والتسيب، فهي بلا "ذاكرة" وغير قادرة على التحول إلى معرفة عامة. إنها مرتبطة بواقعة بعينها، وستختفي باختفاء الشروط التي أنتجتها. أما في الحالة الثانية، فإن الإحالة تتم وفق قانون أو فكر يجعل من الواقعة ذاكرة قابلة للتعميم. مثال ذلك أنك إذا قلت أو نطقت أمام شخص ما بكلمة " شجرة " ولم يكن هذا الشخص قد سمع بهذه الكلمة أو رأى الشجرة، فإنه لن يدرك من هذه الواقعة سوى مجموعة من الأصوات التي قد تثير لديه بعض الانفعالات أوالأحاسيس ولكنها لن تقوده قطعا إلى إدراك أي شيء. لحظتها سيكون بإمكانك أن تأخذ بيديه لتريه شجرة مرسومة على الورق أو في الواقع. وفي هذه الحالة فإنك لا تقوم إلا بربط ماثول (صورة أو شجرة فعلية) بموضوع (ما تتضمنه الصورة أو الواقع) لأن هذا الربط

Eliseo Veron: La sémiosis et son monde, in Langages n 58, p 73 (15)

هو ربط "محلي" و"مؤقت". فما دام هذا الرجل لا "يمتلك الشجرة فكريا"، فإنه لن ينظر إلى الواقعة إلا باعتبارها تجربة صافية خالية من الفكر. ولكن إذا "بررت" هذه العلاقة من خلال "تجريد" الواقعة وتحويلها إلى مضمون معرفي يتجاوز الواقعة العينية (النسخة بتعبير بورس)، فإنك تكون قد أمددت هذا الشخص بـ "فكر" (أو قانون في لغة بورس) يسمح له باستحضار كل ما يشبه هذه الواقعة، أي أن الشجرة التي رآها منذ قليل تتحول عنده إلى نموذج عام، يستطيع من خلاله استحضار كل "الأشجار الممكنة" كيفما كانت الصور التي تحضر بها إلى الواقع. وهذا ما يقوم به المؤول، وتلك وظيفته داخل العلامة. وعلى هذا الأساس فإن "التدليل" لا يمكن أن يستقيم من خلال حركة إحالة ثنائية التكوين، إن التدليل فعل ثلاثي يستدعي وجود ثلاثة عناصر مرتبطة فيما بينها: ماثول وموضوع ومؤول. وهذا هو الشرط الأولي للحديث عن تجربة فكرية (تجربة إدراكية).

إن نمط البناء هذا هو تأكيد للطابع المركب للفعل الإدراكي الذي يقود الذات المدركة إلى التخلص من العالم الخارجي عبر استيعابه كقوانين، أي تمثله كسلسلة من النماذج المؤدية إلى استحضار التجربة عبر وجهها المجرد. وبعبارة أخرى، فإن المؤول يقوم - من خلال موقعه كأداة للتوسط الإلزامي- بخلق حالة إدراك تسمح للذات بالانفلات من ربقة كل الإرغامات التي يفرضها الزمان والمكان عبر الامتلاك الرمزي للكون (أو الامتلاك الفكري للكون كما كان يقول كاسيرير). فلقد « استطاع الإنسان، من خلال الرمز وداخله، أن ينظم تجربته في انفصال عن العالم. وهذا ما جنبه التيه

في اللحظة، وحماه من الانغماس في مباشرية الـ "الهنا" والـ" الآن" داخل عالم بلا أفق ولا ماضي ولا مستقبل. فكما أن الأداة (outil) هي انفصال عن الموضوع، فإن الرمز هو انفصال عن الواقع »[16]. وليست الدلالة وطرق إنتاجها وسبل تداولها سوى حصيلة حركة " ترميزية" قادت الإنسان إلى التخلص من عبء الأشياء والتجارب والزمان والفضاء.

3- المؤول والتأويل

إن الطبيعة التركيبية الخاصة بالفعل الإدراكي، تمتد لتشمل في مرحلة ثانية مستويات إنتاج الدلالة وتداولها. وإنتاج الدلالة، باعتباره نشاطا رمزيا في المقام الأول، لا ينفصل عن السبل الخاصة في تنظيم " أشياء الكون ووقائعه " وتوزيعها على خانات وأقسام. فإذا كانت الأشياء لا تدرك إلا باعتبار موقعها ضمن " قسم خاص" نطلق عليه أحيانا "النسق" وأحيانا أخرى "النموذج"، فإن الدلالة المرتبطة بهذه الأشياء (إنها في واقع الأمر السبيل الوحيد لإدراكها) لا تستقيم إلا من خلال تحديد موقع هذا الشيء أو ذاك ضمن هذا النسق أو ذاك. وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإن العلامة هي الوسيلة الأساس (وربما الوحيدة) في إعداد الموضوعات وتنظيمها والقذف بها إلى ساحة التداول.

وللتداول دور هام، فهو يكشف عن المظاهر المتنوعة للشيء ولأنماط وجوده وتجلياته. ولهذا السبب، إذا كان تغيير موقع الشيء

---

(16) Molino (Jean): Intrpréter, in l'interprétation des textes, ed minuit, 1989, p 32.

من نسق إلى آخر يؤدي حتما إلى تغيير في دلالته، فهذا معناه أن الدلالة ليست معطى جاهزا بل هي سيرورة، ولا تحضر في الذهن باعتبارها كلا بل باعتبارها مستويات.

من هنا، إذا كانت الواقعة (كيفما كانت طبيعتها) تحتفظ في جميع السياقات بنواة معنوية قارة، فإنها معرضة دائما لاستعمالات متنوعة تغني هذه النواة وتتجاوزها في الآن نفسه: إن "مدخل الكلمة" و"معنى الواقعة الاجتماعية" و"معنى الشيء" كلها عناصر تشكل أنوية قارة تنسج منها وعبرها مجمل الدلالات المرافقة لعملية تغيير السياقات. إن هذه المداخل تشكل ما يشبه الجذر المشترك لمجموع الدلالات التي يمكن أن تمنح لواقعة ما. بل يمكننا القول إن التواصل البيئنساني مرهون بوجود هذه الأنوية التي تعد تعميما لتجربة إنسانية قارة. فقد يتغير معنى الشجرة من سياق إلى آخر، بل قد تحيل الشجرة على مضامين بالغة التباين، إلا أن النواة المعنوية الصغرى تظل ثابتة وهي التي تسمح بالعودة من جديد إلى الأصل لتوليد مزيد من الدلالات، والمقصود بالنواة هو المعني التقريري المباشر.

ويبدو أنه لا يمكن فهم مجمل التصنيفات [17] التي يقدمها

---

(17) يشير بورس في معرض حديثه عن المؤول الديناميكي مثلا إلى وجود مؤول انفعالي وأخر طاقوي وثالث منطقي Peirce : Ecrits sur le signe p130. واستنادا إلى سلسلة الشروح التي يقدمها، يمكن القول إن بورس في هذه اللحظة كان ينظر إلى المؤول الديناميكي من زاوية التلقي، أي من زاوية وجود وضعية إبلاغية تستدعي باثا يلقي كلاما ومتلقيا تصدر عنه ردود أفعال ما. ولعل هذا التصور هو الذي دفع كرانتيني Carontini إلى محاولة تطوير نظرية في القدرة الإبلاغية انطلاقا من هذا التقسيم الذي يقدمه بورس. انظر:

Enrico Carentini: L'action du signe, éd Louvain-La-Neuve, Bruxelles 1984, الجزء الثاني.

بورس لفعل التأويل إلا من هذه الزاوية. فرغم الحضور المكثف للطابع المنطقي المرافق لهذه التصنيفات، فإن ما يجب الانتباه إليه، بل والتركيز عليه، هو وجود سيرورة تأويلية تتحرك ضمن مسير يحدد لها منطلقاتها، كما يحدد لها إرغاماتها وقوانينها. ومن نافلة القول، إن كل الحقول تنتظم في سيرورات دلالية خاصة ووفق أنماط محددة في التجلي. وهكذا يمكن الحديث عن تقسيم عام يخترق السيرورة التأويلية ويحددها في أشكال ثلاثة، وكل شكل من هذه الأشكال محكوم بوظيفة معينة داخل عملية إنتاج الدلالة.

وعلى هذا الأساس، فإن ذاك المعنى «المعطى بشكل صريح داخل العلامة، المنفصل عن أي سياق وكذا عن شروط التعبير عنه[18]» هو زاوية نظر تلتقط ما توفره العلامة في بعدها المباشر، أي كما تبدو للمتلقي وكما يدركها دونما اعتماد على شيء آخر غير عناصرها الذاتية. إن التقاط هذه المعرفة، بهذه الروح، هو ما يسميه بورس بالمؤول المباشر، أي «ما يتم الكشف عنه من خلال إدراك العلامة ذاتها، ما نسميه عادة بمعنى العلامة (. . .) إنه يتحدد باعتباره ممثلا ومعبرا عنه داخل العلامة»[19].

إننا أمام حالة أولية للإدراك تتمثل في إنتاج دلالة لا تتجاوز حدود تعيين تجربة ما كما تقدمها العلامة من خلال مظهرها المباشر. إن حدود هذه الدلالة هي وصف هذه التجربة بالاعتماد فقط على العناصر الأولية التي تشتمل عليها العلامة دونما اعتماد على شيء آخر. «فما تحيل عليه العلامة في بدايتها هو الإحساس بأن هذه

(18) Peirce : Ecrits sur le signe p 128

(19) نفسه ص 189

العلامة تنتج وقعا معينا . فهناك دائما إحساس نؤوله باعتباره دليلا على أننا قد فهمنا ما تدل عليه هذه العلامة » [20]. إن الأمر يتعلق بوقع فقط، أو بإحساس ما يشير إلى أن الذي يتلقى العلامة قد فهم ما تود العلامة قوله . فما هو هذا المضمون الذي ينظر إليه كإحساس فقط ؟ وما ذا نعني بالإحساس ثانيا؟ .

« إن المؤول المباشر لا يقترح، في واقع الأمر، أية معرفة، إلا أنه يقوم بإدراج الماثول ضمن حركة تأويلية » [21]، إنها طريقة أخرى للقول بأن هذا المؤول يشكل لحظة بدئية داخل سيرورة لا نرى منها سوى بدايتها، أما نهايتها فموكولة إلى الشخص الذي يقوم بالتأويل . وبعبارة أخرى، فإن ما نعينه من خلال هذا التمثيل هو مستوى دلالي أول مرتبط بحركة تأويلية يتحدد مضمونها من خلال مجمل المسيرات التأويلية التي يعلن عن ولادتها .

وبما أن التأويل هو دائما زحزحة للعلاقات، وتغيير للمواقع، وإعادة لترتيب عناصر العلامات، فإن ما يضمن سلامة التأويل ودوامه واستمراره في إنتاج الدلالات المتنوعة هو وجود هذا الحد الأدنى المعنوي المرتبط بتجربة حياتية لا تتجاوز حدود الاستجابة للبعد النفعي فيها . من هنا كان النظر إلى المؤول المباشر باعتباره قراءة أولية في معطيات ظاهرة في أفق فتح آفاق متنوعة أمام مستوى آخر من مستويات التدليل . ولأن المؤول هو " علامة موازية أو أكثر تطورا " من الأولى، فإنه في ضمانه للإحالة من ماثول إلى موضوع، يؤكد هشاشتها، فتصور البحث من جديد عن إحالة أخرى أمر وارد

---

(20) Peirce : Ecrits sur le signe p 130

(21) Carontini (Enrico) : Action du signe p 30

في كل لحظة ومع كل سياق (مع أي فعل تأويلي). ذلك أن الإحالة تخضع لتراتبية ولا يشكل المؤول المباشر داخلها سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى.

وبما أن كل واقعة، سواء تعلق الأمر بـ "الكلمة" أو بـ "الشيء" أو بـ "طقس من الطقوس الاجتماعية"، تستدعي دائما، لكي تدرك، السيرورة التاريخية التي نشأت في أحضانها، وتحولت عبرها إلى ذاكرة للفعل الإنساني، فإن الجنوح إلى تجاوز ما هو معطى بشكل مباشر داخل العلامة والبحث عن معان ثانية أمر طبيعي، ويستجيب للطابع المتنوع للحاجات التي تنتجها الممارسة الإنسانية.

وعلى هذا الأساس، فإننا نعثر في تصور بورس على نوع ثان من المؤولات قد يستجيب لهذه الحاجات، يطلق عليه بورس المؤول الديناميكي. وهذا المؤول مرتبط في الوجود بالمؤول الأول، إلا أنه يختلف عنه من حيث الطبيعة (فهو متجدد باستمرار) ومن حيث الاشتغال (فهو قراءة في السياق الذي يوجد خارج العلامة، أي مجمل المضامين الثقافية التي تشير إليها العلامة). وبعبارة أخرى، إنه العنصر الذي يدل على أن معنى العلامة ليس "استجابة لحاجة أولية ومباشرة"، بل هو نقش في ذاكرة غير مرئية من خلال الفعل التمثيلي الأول. وهكذا، فإن بورس يرى فيه «الأثر الذي تنتجه العلامة فعليا في الذهن« أو » هو كل تأويل يعطيه الذهن فعليا للعلامة » (22).

وإذا تغاضينا – في هذا التعريف – عن تحديد رد فعل المتلقي

(22) Peirce : Ecrits sur le signe p 189

للعلامة، فإن المؤول الديناميكي يحيلنا على حركية التأويل المتولدة عن قراءة متجاوزة للمعطى المباشر للعلامة. إنه تحديد لسلسلة من المسيرات التأويلية التي تعد أصل السميوز وطبيعتها الفعلية. والسميوز، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، هي حركة تأويلية غير محددة بأي أفق وغير محكومة بأية غاية. إنها سلسلة الإحالات المتولدة عن حركة تمثيل أولى ومنتشرة في كل الآفاق.

وعلى هذا الأساس، فإن ما يطلق العنان لهذه الحركة وما يمدها بعناصر التأويل هو هذا المؤول الذي يغرف عناصر تأويله من مصادر متعددة: الثقافي والإيديولوجي والخرافي والأسطوري والديني، وكل ما يمكن أن يسهم في إغناء التأويل وتنويعه. ومن خلال هذا، فإنه يدرج السميوز - وتلك وظيفته- ضمن دائرة اللامتناهي، أي ضمن دائرة تأويلية يفترض بورس أنها غير محكومة بنهاية أو غاية بعينها.

ولعل هذا ما دفع الكثير من القائلين بحرية التأويل ولامحدوديته إلى الاعتقاد أن بورس يمدهم بأغلى المقترحات وأكثرها أهمية. فالقول بلانهائية الإحالة هو القول بأن التأويل لا يمكن أن يكون محكوما بأية غاية. فرغكم القول بأن المعنى محكوم بالسياق، فإن ما يجعل من التأويل حركة لا متناهية هو أساس هذا السياق، فلا أحد يستطيع أن يوقف السياق في عدد بعينه. «وهناك فقرات في كتابات بورس تؤكد إمكان الحديث عن متاهة تأويلية لامتناهية: «لا يمكن لمعنى التمثيل أن يكون سوى التمثيل ذاته. وبالفعل، فإن التمثيل لا يمثل سوى نفسه باعتباره يُدرك خارج أي سياق. ولا يجرد

هذا السياق من معناه وإنما يتم استبداله بمعنى أكثر شفافية. لذلك، فالأمر يتعلق باندحار لا متناهي للعلامة »(23)*(C P 1. 339).

فالعلامة لها الحق، بمجرد أن تتخلص من لحظة التمثيل الأولى، أن" تسلم أمرها لمتاهتها الأصلية" على حد تعبير دريدا. «فبمجرد ما يتجسد الماثول - في صيغته المركبة كما هو الشأن مع النص - فإنه يكتسب استقلالية سيموزيسية، حينها قد تصبح قصدية المتلفظ غير ذات أهمية، قياسا لموضوع النص الذي نقوم بتأويله وفق القوانين السميوزية الثقافية القائمة»(24). فالغاية من كل تأويل هي الإحالات ولا شيء سوى الإحالات، فنحن لا نبحث عن مدلول نهائي أو دلالة نهائية، بل غايتنا هي إنتاج أكبر قدر من اللذة، واللذة هي الإحالات ذاتها. وبورس نفسه يقر بذلك من خلال التعريف الذي يعطيه للعلامة، فهو يؤكد أن الإحالات التي تولدها السميوز إحالات لا يمكن أن تتوقف عند حد بعينه، فالدلالة، عندما تنفلت من عقالها لا أحد يستطيع أن يحدد لها وجهتها. فالسميوز في جوهرها سيرورة لا متناهية.

ومع ذلك، فإنها « تعد في الممارسة سيرورة محدودة ونهائية. إنها تقع تحت طائلة العادة التي نملكها في إسناد هذه الدلالة إلى تلك العلامة داخل سياق مألوف لدينا »(25). إنها كذلك لأن أي تدليل

(23) أمبيرتو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة، سعيد بنگراد، المركز الثقافي العربي، بيروت 2000، ص 119

(24) نفسه ص 132

(25) Nicole Everart- Desmedt: Le processus interprétatif, introduction à la sémiotique de C S Peirce, ed Mardaga Editeur, p 42.

إنما يقوم انطلاقا من سياق خاص يحدد للدلالات حجمها ومصادرها وامتداداتها. وفي كل الأحوال، فإن السياق ليس سوى محاولة لعزل واقعة ما، وإدراجها ضمن منطق خاص للتدليل. وهذا معناه تخليص الواقعة من كل ما لا يستقيم داخل هذا السياق. والخلاصة «إذا كانت سلسلة التأويلات غير محدودة كما بين ذلك بورس، فإن الكون الخطابي يتدخل من أجل تحديد حجم الموسوعة[26].

إن الانتقال من مؤول إلى آخر لا يقوم على إلغاء ما سبق من المعارف. وهذا هو جوهر سميائيات بورس. إن النقطة النهائية التي نصل إليها تزيدنا معرفة بالنقطة التي انطلقنا منها. ولا يمكن للتأويل أن يكون إلغاء للبدء. فكلما توغل التأويل في أدغال العلامات إلا وأنتج مزيدا من المعرفة. فنحن نؤول وفق غايات خارج سميائية. «فالعلامة تحتوي أو تشير إلى مجمل مكوناتها الأكثر إيغالا في القدم. إلا أن معرفة هذه المكونات هي مجرد احتمال سيموزي لا يمكن أن يتحقق إلا ضمن سياق محدد أو من زاوية بعينها. فالسميوز لامتناهية في المطلق، إلا أن غاياتنا المعرفية تقوم بتأطير وتنظيم وتكثيف هذه السلسلة غير المحددة من الإمكانات. فمع السيرورة السميوزيسية ينصب اهتمامنا على معرفة ما هو أساس داخل كون خطابي محدد». [27].

فرغم كل الإشارات التي يقدمها بورس في اتجاه تأويل لا

(26) Eco, Umberto: Lector in fabula, ed Grasset, 1985, p . 77

(27) أمبيرتو إيكو: التأويل بين السميائيات والتفكيكية، م . س ص 121 .

محدود، فإن الاختلاف بين ما تقدمه التفكيكية مثلا، وبين السميوز اللامتناهية يظل كبيرا. فالغايات الخارجية التي لا يكف بورس عن الإشارة إليها، وكذا التصنيفات المنطقية المرافقة لكل حكم دلالي(سنعود إلى هذا التصنيف في الصفحات الآتية) تشهد على وجود كابح دلالي يوقف التدليل عند حد بعينه.

وهذا ما يفهم من التعريف الذي يقدمه بورس للمؤول النهائي الذي يعتبره محطة نهائية داخل سيرورة التأويل، ومهمته هي تحجيم السميوز والتقليص من حجمها. وعلى هذا الأساس، فإن القوة " المدمرة " التي يطلق عنانها المؤول الديناميكي (من حيث إنه مرتبط بمعرفة واسعة)، لا يمكن أن تتوقف من تلقاء نفسها، ولا يوجد داخل هذا المؤول ما يوحي بإمكانية التوقف عند دلالة بعينها. إن إيقاف هذه الحركة لا يتم إلا من خلال الاستعانة بمنطق آخر للتدليل، أو إن شئنا القول، علينا إرساء دعائم سياق خاص يستدعي الانتقاء والحذف والتحجيم. وتلك هي مهمة المؤول النهائي كما يرى ذلك بورس. ترى ما كنه هذا المؤول ؟

إن المؤول النهائي هو «الوقع الذي تولده العلامة في الذهن بعد تطور كاف للفكر». (28) فما كان يبدو لا محدودا يتحول من خلال المؤول النهائي إلى حركة محكومة بقوانين محددة تجعل كل إحالة مندرجة ضمن منطق خاص للإحالة. فداخل سيرورة تأويلية يجنح الفعل التأويلي إلى تثبيت هذه السيرورة داخل سياق ثقافي يمكن النظر إليه باعتباره أفقا نهائيا داخل مسير تأويلي ما يقود من تحديد

---

(28) Peirce : Ecrits sur le signe p 189

معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر)، إلى إثارة سلسلة من الدلالات البالغة الغنى والتنوع (مؤول ديناميكي)، ليصل في نهاية الأمر إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي).

ويعد هذا الأفق شكلا نهائيا ستستقر عليه هذه السيرورة. إن الأمر يتعلق بما يسميه بورس بالعادة، «فالعادة تجمد مؤقتا الإحالة اللامتناهية من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنى للمتكلمين الاتفاق على واقع سياق إبلاغي معين، إن العادة تشل السيرورة السميائية، فهي عالم "الأفكار الجاهزة". ولكن العادة هي وليدة علامات سابقة، ولهذا فإن العلامات هي التي تؤدي إلى تدعيم أو تغيير العادات»(29).

ولعل هذا ما لا يجعل من "النهائية" مضمونا زمنيا يتحدد داخله المؤول النهائي باعتباره مصدرا لإنتاج دلالات لا سلطة للزمان عليها. إن "النهائية" هنا تتعلق ببداية ونهاية مسير تدليلي ما، فما يبدو كنهاية منطقية لمسير دلالي ما، سيتحول إلى نقطة بدئية داخل مسير دلالي آخر. إنه الرغبة الدفينة واللاشعورية التي تستشعرها الذات المؤولة في الوصول إلى دلالة بعينها انطلاقا من سيرورة تدليلية بعينها. أو هو محاولة الذات لخلق "محميات دلالية" تريحها من عبء المتسيب واللامحدود واللاقار من خلال الرسو على موقف دلالي بعينه.

وربما سيكون من السهل جدا القول بأن الغاية من وجود مؤول

(29) Nicole Everart- Desmedt : Le processus interprétatif, introduction à la sémiotique de C S Peirce , ed Mardaga Editeur, p 42 - 43.

من هذا النوع هي تحديد معنى كخلاصة لمجهود تدليلي، أي استقرار ماثول على موضوع. إلا أن الأمر أعقد بكثير من ذلك. فهذه السيرورة هي سيرورة افتراضية أملتها غايات منهجية فحسب. فالتدليل ومراحله وخاناته ليس شيئا شفافا يمكن المسك به بسهولة. إنه مركب ومتنوع ومتعدد التجليات، وليس من السهل الفصل داخله بين نقطة بدئية وأخرى نهائية وثالثة تتوسطهما. فهو إلى جانب استناده إلى العناصر الأساسية التي توفرها العلامة كمادة للتأويل، يفترض وجود ذات خاصة تقوم بإنجازه، وهذا يعني استحضار مخزون ثقافي آخر تأتي به هذه الذات في أفق تحقيق تأويلها الخاص.

ولقد حاول جيرار دولودال [30]، انطلاقا، من نصوص بورس نفسها، أن يصنف مجمل الدلالات الناتجة عن توقف السيرورة التي يكشف عنها المؤول الديناميكي، انطلاقا من قواعد منطقية تلخص عملية برهانية خاصة. إن بورس يدرج فعل المؤول النهائي في ثلاث خانات تشير كل منها إلى حكم منطقي خاص:

1 - قد يكون هذا المؤول "عادة عامة" مرتبطة بالسلوك الاجتماعي، أي مرتبطة بكل ما يخص الأحكام الاجتماعية القيمية (السلوك الاجتماعي في الأفراح والحفلات والأحزان). وهذا أمر في غاية البساطة، فالممارسة الإنسانية تنتج أشكالا سلوكية عامة وقارة تحتكم إليها وتقيس عليها نسخها المتحققة. وهذه الأشكال هي ذاتها نتاج سيرورة سميائية سابقة اقتضت الحاجة الحياتية

(30) Deledalle, Gerard: Théorie et pratique du signe

(والدلالية) إدراجها ضمن القوالب التي تشكل غطاء لكل ممارسة فردية خاصة. وفي هذه الحالة ينظر بورس إلى هذا المؤول باعتباره " افتراضا " (abduction).

و "الافتراض" - في الجهاز المفهومي الذي يقترحه بورس - لا ينتج معرفة مع كل مستلزماتها الدلالية، «إنه منهجية للخروج بتكهن عام دون وجود ضمانة موضوعية على أنه سيصدق على حالة خاصة أو حالة اعتيادية. إن ما يبرر هذا التكهن هو أنه يشكل الأمل الوحيد في تنظيم سلوكنا المستقبلي تنظيما عقلانيا »(31). إن مهمته هي أن يقوم فقط بقياس حالة غير معروفة على ما تعرفه الذات المؤولة بشكل سابق. فـ«السيرورة الافتراضية تقتضي التعامل مع التجربة التي أواجهها انطلاقا من معرفة سابقة، ويتعلق الأمر بالتطبيق الميكانيكي لحالة خاصة على مقولة سابقة »(32).

إنها قواعد برهانية "مستترة" نحتكم إليها كل يوم، ونستند إليها من أجل تفسير وقراءة مجمل ما يعود إلى التجربة العادية. وبعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بطريقة خاصة في تنظيم مجمل المعارف التي تعود إلى حقل سلوكي معين. فالتعرف على التجربة الجديدة يقتضي إلماما بعناصر النسق الذي تنتج داخله هذه التجربة. و« يجب أن تكون هذه التجربة الجديدة قادرة على إنتاج مقولات جديدة ستعمل استقبالا على إغناء المقولات السابقة عليها »(33).

---

(31) Peirce : Ecrits sur le signe, p 188.

(32) Carontini (Enrico) : Action du signe p. 33

(33) نفسه ص 33.

2 - وقد يحدد هذا المؤول نشاطا معرفيا من طبيعة أخرى. والأمر يخص ما يسميه بورس بـ "العادة المخصوصة" . وهي عادة لا تهم سوى قطاع معرفي بعينه يتميز بدقته المعرفية وبإمكانية خضوعه للمراقبة العلمية. وهكذا يرى بورس أن المؤول النهائي في هذه الحالة يعين طريقة في الكشف عن حكم عام من خلال حالة خاصة. وتلك عادة الخبير الفني الذي يقوم برد لوحة مجهولة إلى فنان بعينه، ومدرسة فنية بعينها أيضا. . . ؛ وهي أيضا عادة عالم الحفريات الذي يقوم بتحديد تاريخ حجر ما استنادا إلى المعرفة التي يملكها عن تعدد العصور الجيولوجية مثلا. ويدرج هذا المؤول ضمن الأحكام القياسية (induction). والقياس في لغة بورس هو «طريقة خاصة في بلورة رموز قضوية (dicisignes) خاصة بقضية محددة. ولا يستند المؤول، عبر طريقة الحكم هاته، إلى مقدمات صحيحة، فهذه الطريقة تصل إلى نتائجها الصحيحة في جل الحالات وعلى مدى بعيد. إنها تشير إلى أنه إذا تم الحفاظ على هذا النهج، فإنه سينتج استقبالا الحقيقة أو ما يقترب منها فيما يخص مجمل القضايا»(34).

وبعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بالوصول إلى قاعدة عامة انطلاقا من حالة خاصة. وتلك هي العادة المخصوصة التي تصنف معلومة جديدة ضمن معرفة عامة. ويشكل هذا الحكم - داخل هذه الحالة النهائية - حركة ثانية داخل السيرورات التي يطلق عنانها فعل التأويل الناتج عن دخول المؤول الديناميكي ساحة التأويل.

(34) Peirce : Ecrits sur le signe, p 187

3- أما السيرورة الثالثة فتقود هذه المرة - عبر نمط خاص في الإحالة - إلى أحكام ذات طبيعة استنباطية. ويوصف المؤول في هذه الحالة بـ "الاستنباطي" (déduction) لأنه يستند - من أجل تحديد الدلالات الخاصة بمسير ما - إلى معرفة عامة منفصلة عن الفعل المباشر (النسخ الخاصة للفعل). ويصف بورس هذه العلاقة بقوله : «إن الاستنباط حجة يتحدد المؤول داخلها من خلال انتمائه إلى قسم عام من الحجج الممكنة والمشابهة. وهذه الحجج هي من العمومية لدرجة أن كل المقدمات الصحيحة داخلها ستؤدي، عبر التجربة، إلى نتائج صحيحة. »(35). ولعل هذه العمومية هي التي تجعل من هذا المؤول نسقيا وخارج أي سياق. فهو كذلك لأن المعرفة التي يستند إليها في عملية تأويله، معرفة عامة وتخص القضايا الكبرى التي تشكل مقدمات برهانية لتحديد الحالات الدلالية الخاصة، أي تلك التي تنتجها سياقات بعينها.

إن ما يمكن استنتاجه من هذه التصنيفات وغيرها هو أن المؤول النهائي ليس آلة لإنتاج الدلالات والمعاني، كما أنه ليس صياغة نهائية لدلالات بعينها تعد إثباتا لمعرفة قارة. إنه على العكس من ذلك، ورغم مظهره الانغلاقي، يشير إلى أن الدلالات متعددة تعدد السياقات التأويلية، وأن التعدد لا يوجد في الواقعة، إن كل تعدد إنما يعود إلى الذات التي تقوم بالتأويل وقدرتها على استحضار كل السياقات التي تبرر هذا التأويل وترفض ذاك.

وبطبيعة الحال فإن هناك العديد من التقسيمات والتصنيفات

---

(35) Peirce : Ecrits sur le signe, p 186

الفرعية المتولدة عن هذه الآلة التأويلية، لكننا لم نشأ إيرادها لاقتناعنا العميق بأن كل نظرية تولد محملة بالكثير من التمييزات الدقيقة التي تحددها في جزئياتها الصغيرة، ولكنها كلما تقدمت في الزمن تخلصت من الكثير من عناصرها في أفق خلق صيغة معرفية قادرة على استيعاب ما توفره الوقائع الجديدة التي تحتاج إلى تغيير في الرؤية من أجل خلق حوار وتواصل بين نظريات أخرى.

ولم نفعل ذلك، من جهة ثانية، لأن غايتنا الأساس هي تفصيل ما قلناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب على شكل أحكام مكثفة وشديدة الاختصار. وهذا ما يقودنا إلى خلق نوع من التواصل بين ما يقدمه بورس كتصور نظري مغرق في التجريد والعمومية، وبين الممارسة النصية التي تقتضي الحذف والتعديل والتحوير.

وهذا الأمر ممكن من خلال إدراج ما يقدمه بورس ضمن تصورات عرفت بانشغالها الكبير بقضايا المعنى، كالسميائيات السردية والأشكال التحليلية المتفرعة عنها. فالمنهج ليس أدوات ومفاهيم معزولة ومفصولة عن بعضها البعض، إن المنهج - من خلال هذه الأدوات والمفاهيم - هو في المقام الأول تساؤل حول المعنى وتساؤل حول طرق إنتاجه، وكل «مفهوم مرتبط بقضية، بل بقضايا وبدونها لن يكون له أي معنى» (36).

---

(36) Gilles Deleuz, Fellix Guattari: Qu'est ce que la philosophie, Ed Minuit, 1991, p 22.

4- الممكنات الدلالية وسيرورة التأويل

إن ما انتهينا إليه في الفقرة السابقة (ماقلناه عن نهائية التأويل) هو الذي يدفعنا الآن إلى وضع تساؤل محرج : من أين تأتي هذه القوة المنطقية الأصيلة التي ينبثق منها التصنيف الدلالي النهائي المشار إليه؟ وبعبارة أخرى، هل نحن أمام مستوى سميائي خاص يُكثف فيه المنتوج السلوكي المنبعث من الممارسة الإنسانية في أفق تحولها إلى قوة ضابطة لكل الأوجه المحسوسة؟ أم نحن أمام مضامين فكرية مودعة في النص بشكل سابق على الممارسة الإنسانية في تجلياتها المتعددة ؟

للجواب عن هذه الأسئلة يجب تحديد زاوية نظر أخرى يمكن أن يتحول عبرها المؤول النهائي إلى سند رئيس لتحديد أشكال التحقق المنبثقة عن أصل مجرد. فكل ما هو متحقق يمتلك بهذا الشكل أو ذاك، أو في هذا الأفق أو ذاك، سقفا يبرره ويفسره ويضمن تداوله ومعقوليته. إن هذه الخاصية تصدق على جميع الوقائع دون استثناء. فالسلوك الإنساني مصنوع من سلسلة من الأفعال البسيطة التي تتحول مع الزمن إلى أشكال سلوكية عامة هي ما نطلق عليه "العادة" أحيانا، وهو ما ندرجه ضمن القيم أحيانا أخرى.

ويجب ألا يؤول هذا الكلام على أنه نفي لمرجعية مادية للفعل، والاستعاضة عنها بسقف مضموني تمدنا به قوة توجد خارج الممارسة الإنسانية. إن الحديث عن تنظيم مجرد للقيم الدلالية هو صيغة أخرى للقول بأن القانون لا ينبثق عن الواقعة الخاصة، والقانون (الفكر أو الضرورة في لغة بورس) هو صيغة أخرى للقول

إن الواقعة تطمح، باستمرار، إلى امتلاك وجود استقبالي دائم. وهذا الوجود الاستقبالي مصدره الشكل الذي يحتوي كل الوقائع المخصوصة. فمقولة "الشر" مثلا، باعتبارها قيمة دلالية، ليست مرتبطة في وجودها المجرد بأي سياق، إنها هنا لكي تشير إلى أن مجمل الأفعال الدالة على "شيء يمكن أن يؤول باعتباره إساءة للآخر" يجب أن تصنف ضمن خانة الشر.

وبناء عليه، فإن مقولة "الشر" تشتمل على مجمل إمكانات التحقق، أي تقوم بتحديد مجمل الأوجه التي يتجسد من خلالها كل ما يمكن أن يدل على الشر في سياق خاص. إنها "متصل" (continuum) غير دال من خلال خصائصه الذاتية. ولكي تكون لها قدرة التدليل لا بد من ردها إلى ما يكونها، ولحظتها تتحول عناصرها الداخلية إلى مسيرات دلالية.

يمكن القول إذن إننا أمام مستويين يصنف ويؤول ضمنهما الفعل الإنساني: مستوى "خارج-سميائي" ويتضمن مجمل التصنيفات القيمية المجردة والقارة. إن هذه القيم توجد خارج الممارسة السميائية لأنها انفصلت عن الفعل الخاص، وهو ما يحدد هويتها المميزة. ومن جهة أخرى هناك ما ينتمي إلى البعد السميائي بحصر المعنى، ويعين هذا المستوى كل ما يدرك كتحقق محسوس ضمن سياق خاص. إن التفاعل بين المستويين هو ما يضمن استمرارية الحياة ومعقوليتها. فبدون سقف مجرد لا يمكن تصور فعل خاص، كما أن كل فعل خاص لا بد وأن يصنف - عاجلا أو آجلا- ضمن خانة تبرر وجوده واستمراره.

ويمكن صياغة هذه الإشكالية بطريقة أخرى. لنفرض أننا أمام " عادة " معينة كما تبدو من خلال السلوك الفردي أوالجماعي. فما هو وضع هذه العادة وما هو مضمونها ؟. إن الحس السليم يدلنا على أن كل عادة هي في الأصل فعل صادر عن شخص ما في زمن ما وفضاء ما. ولأن هذا الفعل قد يتكرر مرات عديدة، فإنه قابل لأن يتحول -عندما يتخلص من العناصر التي تشده إلى خصوصية غير مميزة - إلى شكل عام تراقب عبره الأفعال المشابهة. إن هذا الأمر يثير ثلاث ملاحظات على الأقل :

- أولا يجب التعامل مع كل عادة باعتبارها سلوكا بمضمون زمني، حولته الممارسة الإنسانية إلى صيغة مجردة. إن التخلص من الزمنية عبر التجريد لا يكون إلا بهدف التحكم في كل المضامين الزمنية.

- ثانيا إن هذه الصيغة المجردة، بحكم ارتباطها الدائم بالسلوك الخاص، تغتني وتتطور وقد تولد صيغا جديدة تبنى على أنقاض الصيغ القديمة.

- ثالثا، وهذا هو الأهم، فإن كل الأشكال التي استقرت عليها الممارسة الإنسانية في مرحلة تاريخية ما، تتضمن بالضرورة رؤية الإنسان للعالم وطبيعة علاقته بالأشياء، وكذا طريقته في التقطيع المفهومي الذي ينقل العالم الخارجي إلى ميدان الفكر.

وفي هذه الحالات، فإن الفعل الخاص هو المدخل الأساس لتحديد المضامين المجردة ورسم حجم تطورها. فهو، بحكم ارتباطه بالممارسة الإنسانية وبوجهها المرئي بالتحديد، يعد وحده العنصر القابل للوصف والتحديد والتحليل.

إن هذا المستوي السميائي السابق على التجلي الخاص للفعل (وعن النص أيضا)، هو نقطة الارتكاز الرئيسة نحو فهم كنه المؤول النهائي وطريقة عمله وفق موقعه الجديد. إنه هنا لا يعين " معنى" أي جوهرا معنويا مجردا ومستقل الوجود، إنه يشير فقط إلى إجراء يتم عبره الحصول على قيمة دلالية لا تفهم ولا تدرك إلا باعتبارها خلاصة لهذا الإجراء، وستختفي حتما باختفائه. فما يُكَوِّن المؤول النهائي ليس مادة بل علاقات، وهو ليس وجودا ساكنا بل إجراء. فالمادة المضمونية ليست قدرا، إنها موجودة في حدود أن هناك إجراء يعمل على إغنائها، وهي موجودة أيضا في حدود أنها تقوم بتغذية الأشكال المتحققة في وقائع خاصة. من هنا، فإن هذا المضمون الدلالي الأولي هو مصدر الأشكال الدلالية التي تحتضنها السياقات الخاصة.

إن ما ينظم التجربة الإنسانية في كليتها هو نفسه ما يحكم بزوغ الدلالة. فإذا كانت الدلالة لا تعبأ بمادة تجليها (گريماص)- فالمعاني لا تستأذن أي شيء لكي تولد وتمارس نشاطها- فهذا معناه أن التجربة الإنسانية كلية وتحتاج، لكي تكشف عن نفسها، إلى مواد تعبيرية بالغة التنوع.

وعلى هذا الأساس التقط بورس مفهوم المؤول باعتباره الأداة التي تقيم التواصل بين مجموع الصيغ التعبيرية. فالتعيين ليس حالة نهائية، إنه تثبيت لسيرورة في واقعة، هي نفسها ستؤول باعتبارها نقطة بدئية لسيرورة جديدة. ولعل هذا ما دفع روبير مارتي (R. Marty) إلى الاعتقاد بأن مفهوم "حقل المؤولات" شبيه بمفهوم "

السنن الثقافي " ، غير أنهما مختلفان. فالأول أكثر شمولية وأشد جدلية من حيث إنه " كوني محسوس " (un universel concret) في حين يتميز الثاني بأنه " كوني مجرد " (un universel abstrait)، أي مفصول عن لحظات تشكله. [37].

إن سلسلة التحديدات هذه تضعنا مباشرة في قلب إشكالية تناول المعنى والإمساك به وتحديد سبل تجسده في وحدات سياقية « تجعل منه كيانا قادرا على التدليل »[38]. فما يتم تكثيفه عبر الفعل الخاص هو نفسه الذي يتحول إلى مادة، أي إلى كون قيمي يغذي السلوك الخاص، وكل قيمة ليست سوى حكم خاص بالفعل المتحقق.

من هنا، فإن التدليل لا يوجد خارج الفعل وخارج مداراته، إنه هو التدليل؛ وتصور مسير تدليلي يحتاج إلى تحويل ما يَمْثُل كعلاقات لازمنية وغير موجهة، إلى عمليات تُسَرِّب السياق كشرط أساس للإمساك بالدلالة. وتلك هي القاعدة الأساسية التي انطلق منها گريماص لتحويل عالم المعنى إلى سيرورة " إنتاجية " دائمة التحول : أصلها معلق في أشكال مجردة (البنية الدلالية الأولية)[39]، ووجهها المحسوس يتحقق في سيرورات عبر نصوص بجميع الأحجام والأشكال والأنواع. فمن قلب " المجرد الساكن " ينبعث المتحرك الفعلي، ولن يقود المتحرك الفعلي إلا إلى إعادة

---

(37) R . Marty : La théorie des interprétants , in Langages n 58 , p 37

(38) يقول Greimas , Du sens , p 162 : «mettre le sens en état de signifier»

(39) للمزيد من الاطلاع على هذا التصور انظر : -Greimas , Du sens وخاصة :

- eléments d'une grammaire narrative.
- les jeux des contraintes sémiotiques.

صياغة المضامين وتنويعها وفق مستجدات الممارسة الإنسانية. إن سلسلة الإحالات كما يتصورها بورس تجد هنا صداها ومردوديتها.

وبما أن الوقائع الخاصة (الوقائع اللسانية وغيرها) هي سبيلنا الوحيد للتعرف على المضامين القيمية المجردة، فإن تحقق هذه الوقائع لا يمكن أن يكون إلا جزئيا. فالسيرورة التدليلية المنبثقة من هذه الواقعة تعد اقتطاعا لجزئية دلالية معينة وإدراجها ضمن مسير تأويلي يضمن لها الاستقلالية في الوجود المعنوي، ويضمن لها، في الآن نفسه، ارتباطها مع أصلها المولد، أي علاقتها بالوحدة التي تحتضنها. ذلك أن تنظيم المعنى عبر أشكال خطابية متنوعة يفترض التحول من التصور الاستبدالي للوحدات إلى وجهها التوزيعي. فعوض أن ننظر إلى الشر في ذاته باعتبارتعريفه الإيجابي، علينا أن نستحضر مجمل الوقائع القابلة لاستيعاب المضامين المتعددة التي تحيل عليها مقولة " الشر " .

وبناء على هذا، إذا كانت الكلمة هي بالتحديد سلسلة من الممكنات الدلالية، (كل كلمة تشتمل على معاني متعددة) فإن اندراجها ضمن خطاب خاص يقلص من هذه الممكنات عبر تحديد سقف دلالي موحد للخطاب وتناظراته. والخلاصة أن كل وحدة من الوحدات التعبيرية تحتضن داخلها سلسلة من القيم المودعة في مؤولات تقوم بتنظيمها. إنها وحدات مضمونية لا تتحقق إلا عبر مسير دلالي خاص، وكل مسير قد يولد آخر فرعيا وهكذا دواليك. ذلك أن كل إمكان دلالي هو في واقع الأمر استعمال خاص للكلمة. ومن هذه الزاوية يمن تصور الممكنات التأويلية التي يوفرها تصور

من هذا النوع. فالكلمات تنتفي، لكي تحل محلها السياقات التي قد تثيرها هذه الكلمة، وما أكثر السياقات في حالة النص الإبداعي.

ذاك هو الأساس الذي انطلقت منه مدرسة باريس السميائية في تصورها للدلالة والسردية وأشكال تجليهما. وهو الأساس الذي عابه عليها بول ريكور (P. Ricoeur) ولم يستسغه أيضا. فلا يمكن، في رأيه، الحديث عن مستوى سميائي سابق على التجلي اللساني. صحيح قد يكون بالإمكان أن نقرأ الأول انطلاقا من الثاني، إلا أننا لا يمكن أن نتحدث عن مستوى سميائي سابق في الوجود على التجلي اللساني.(40).

وسيعود الفضل، ربما، لمقولة المؤول النهائي في تجاوز هذا التعارض الذي يقيمه ريكور بين المستويين. فالأمر، انطلاقا من مقولة المؤول، لا يتعلق بأسبقية هذا المستوى على ذاك، بل يعود إلى سيرورة من طبيعة واحدة وبنتائج مختلفة. ففي البداية تُوَلِّد السيرورة أشكالا عامة تعد تكثيفا تجريديا للفعل الخاص. وفي الحالة الثانية فإن إدراك المعنى وشروط إنتاجه وتداوله يمر عبر الممارسة الدلالية بوجهها اللساني في حالة النصوص، وبوجهها الفعلي في حالة اللغات غير اللسانية. فكل تأويل يستند في إنجازه إلى تحديد موقع العنصر الموضوع للتأويل ضمن خانة سابقة. وهذا ما يفسر توزيع بورس للممارسة الإنسانية على مستويين: أحدهما سميائي والثاني خارج- سميائي، الأول يرصد الفعل ضمن لحظة التحقق الخاصة والثاني يكثفه ويمنحه وجها مجردا.

---

(40) Ricoeur, Paul: La grammaire narrative de Greimas, Actes sémiotiques, 1980.

الفصل الخامس

السميوز بين الإنتاج والتلقي

توقفنا في الفصل الرابع عند فكرة التأويل كما تبدو من خلال التعريف الذي يعطيه بورس للعلامة. ومن خلال ذلك حاولنا معالجة مجموعة من القضايا التي يثيرها فعل التأويل وأشكال تجلياته. وفعل التأويل، كما رأينا، مرتبط أشد الارتباط، في فكر بورس، بمقولة المؤول. فالمؤول هو الذي يقوم بالتوسط بين أداة التمثيل وموضوعاته. فالعلامة، في تصور بورس، لا يمكن أن تقوم لها قائمة إذا انتفى الرابط " القانوني" بين الأول والثاني، فهو وحده الضامن لصحة العلامة ومعقوليتها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مقولة المؤول تحتل موقعا هاما داخل نظرية ممكنة للتأويل. فالتأويل ينبثق من حركة الإحالات التي تولدها العلامة، لكي ينتشر في كل الآفاق معانقا كل الحاجات التي تفرزها الممارسة الإنسانية. فكل حاجة من الحاجات الإنسانية تفترض تمييزا دلاليا يستجيب لمضامينها. فما التأويل، وفق هذه النظرة، سوى استجابة لتعدد هذه الحاجات وتنوعها.

وهكذا، إذا كانت الإحالات الناتجة عن تمثيل أول تنطلق من فعل تأويلي يكتفي بحصر المعطيات الأولية المنتمية للتجربة المشتركة، فإن التخلص من لحظة التمثيل هذه تقتضي إخضاع هذا المؤول لرجة تخرج به من نطاق التمثيل المباشر والمألوف لكي

تسكنه عوالم غير مرئية من خلال التمثيل الأول، وهذا ما يفتح الباب واسعا أمام سلسلة من التأويلات التي تستدعي، مع كل مسار تأويلي، بناء سياق خاص انطلاقا مما تقترحه العلامة في صيغتها البدئية. وذاك ما كان يطلق عليه بورس بالغايات التي يتم وفقها أي تأويل، وليست هذه الغايات سوى حاجات الذات المؤولة.

إن هذه السيرورة كما رأينا ذلك في الفصل الرابع لامتناهية من حيث المبدأ، إلا أن الغايات الخارج سميائية، وهي غايات تتحكم إلى حد كبير في كل فعل للقراءة، توجه التأويل نحو انتقاء مدلولات وإقصاء أخرى.

من هذه الزاوية سنحاول تناول ما يشكل عصب هذه السيرورة، أي ما يطلق عليه بورس السيموز (انظر الفصل الثاني). وسنعمل على تحديد كنه هذه المقولة وتحديد عالمها وطريقة اشتغالها في علاقتها بفعل القراءة. فالتأويل ليس معطى خارج حدود الذات التي تقرأ وتؤول، فهو ليس وليد ما تختزنه هذه الذات من معاني بشكل سابق عن الولوج إلى عالم النص. فالأساس الإخباري الذي تقدمه العلامة من خلال حالة التمثيل الأولى ليست سوى محفز يقترح نقطة بدئية للتأويل، ولا يمكن أبدا أن يكون خزانا لكل التأويلات. فالذات التي "تجسد" هي التي تطلق العنان لفعل التأويل. ذلك أن «المذاق الحلو لا يوجد في مادة السكر وحدها، وليس حكرا على حاسة الذوق وحدها بل هو تفاعل بين المحفلين». (1)

---

(1) Roland Fischer: L'Analyse structurale de la réalité, in Diogène, 129, 1985, p 46.

ولهذا السبب، فإن مردودية هذا المفهوم لن تتضح إلا إذا ربطناه بمفهوم مرتبط أشد الارتباط بفعل القراءة وعملية تحديد الدلالات الممكنة داخل النص، ويتعلق الأمر بما يسميه إيكو بالتخمين. والتخمين كما سنرى ليس مضمونا سابقا عن النص بل هو فرضية للقراءة. فكل قراءة يحكمها تصور مسبق - على شكل إرهاصات أولية ومبهمة - يحدد التحيينات المقبلة، وتحكمها من جهة ثانية، غاية تأويلية تهدف إلى الوصول إلى نقطة دلالية بعينها ضمن سيرورة تأويلية محددة بسياق خاص.

وسنتناول في هذا الفصل هذا المفهوم من زاوية مردوديته في تحديد أسس التأويل وتعدديته وكذا ميكانيزماته في الانطلاق والنمو والاضمحلال استنادا إلى التصور البورسي العام لفعل العلامة. وهذا أمر ممكن من خلال تحديد موقع التخمين من استراتيجية فعل القراءة المتميز دائما بالانفتاح من جهة، وتحديد موقعه من الغايات التي تحكم فعل التأويل من جهة ثانية، فالعلامة لكي تضمن صحتها تحتاج إلى نقطة إرساء استدلالية يمكن معها القول إن العلامة تعني شيئا ما.

السميوز سيرورة لإنتاج الدلالة

لقد رأينا فيما سبق أن الترابط الموجود بين العناصر المكونة للعلامة هو ما يشكل السميوز. والسميوز، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني، سيرورة في الوجود والاشتغال وإنتاج الدلالات. فالعالم لا يشكل أي شيء قبل أن يتسرب إلى رحم السميوز على شكل علامات من جميع الأحجام والمواد. فالمعروف أن كل

الأشيـاء تطمح لاحتـلال مـوقع داخل حـركـيـة هذه الكيـان الدائم الحركة، وما يوجد خارجها هو " أحداث" طبيعية عرضية بلا قيمة ولا ذاكرة ولا تاريخ. فلا غرابة أن يجعل بورس من العالم أجمع بكائناته وأشيائه نسيجا لا ينتهي من العلامات. فكل ما في هذا الكون خاضع، أو يجب أن يخضع، لسمطقة (sémiotisation) تنقله من بعده المادي إلى ما يشكل جوهره العلامي، أي بؤرة للدلالات المتنوعة.

وهذا التصور وحده يمكننا من تجاوز كل التعارضات المفترضة بين ما هو ممثل، لغة، داخل النص وبين ما يمكن أن يوجد خارجه على شكل عوالم تحيل على جواهر مزعومة لا تغطيها اللغة. فكل ما يحضر داخل النص ليس سوى تمثيل يعيد صياغة تمثيل سابق، فالنص لا يبنى في انفصال مطلق عما يحيط به، بل هو مرتبط في وجوده بكل النصوص السابقة وكل النصوص المحيطة أو المسقطة على شكل إيحاءات قابلة للتحيين.

استناد إلى هذا، فإن العالم الذي تحيل عليه النصوص - ما يتصل بالكائنات والأشياء والأهواء والرغبات والأحلام - عالم ينمو ويكبر ويضمحل داخل نسيج الأكوان الدلالية التي تؤسسها هذه النصوص، أي داخل ما يطلق عليه بورس بالسميوز (2). إن هذا العالم، ارتكازا على هذه المسلمة، محكوم بسلسة من الإحالات الذاتية التي توضح نفسها بنفسها اعتمادا على قوانينها الداخلية من

---

(2) يتحدث إليزيو فيرون عن السميوز بقوله : " إن العالم الذي تحيل عليه العلامات عالم ينمو ويضمحل داخل نسيج السميوز " انظر :

Eliseo Veron : La sémiosis et son monde , in Langages n. 58 , p 71

جهة، واستنادا إلى منطق الإحالات ذاتها من جهة ثانية. فما نطلق عليه "الواقع" و"المرجع" و"الموضوع" و"الشيء الموجود في العالم الخارجي"، "كيانات" لا يمكنها أن تلج عالم التدليل، أي عالم النصوص وإنتاج المعاني، إلا من خلال بوابة الإحالات الرمزية التي تقود إلى خلق تصورات متنوعة تتكفل السميوز بصياغة حدودها القصوى والدنيا، الحقيقية منها والوهمية، المباشرة منها والرمزية.

فكل شيء يوجد داخل النص: فالنص بؤرة للتمثيل وسند لمنطق الإحالات، وهو ما يمنح للكون الدلالي انسجامه وتناظره. وكل شيء يوجد خارجه أيضا، فعناصر النص تهاجر نحو أقاليم أخرى بحكم التجاور والإحالة الرمزية والتذكر والتلميح: لا يمكن مثلا صياغة خطاب عن "الأبيض" دون إسقاط آخر يخص "الأسود"، ولا يمكن الحديث عن "الأفراح" دون أن يلوح في الأفق ما يحيل على "الأحزان".

استنادا إلى هذا، فإن الضمانة الوحيدة على تماسك النص وانسجامه هي بالضبط هذا الفصل بين المتحقق والضمني، بين المعطى المباشر وبين ما يتسرب - في غفلة عن الكلمات أو بتواطؤ منها- إلى النص ليشكل ذاكرة الخطاب وذاكرة القارئ، وهو أيضا ما يرسي قاعدة للحوار بينهما.

ولهذا، فإن الأصل في التمثيل (أي بناء نص روائي أو صياغة قصيدة شعرية أو رسم معالم نص مسرحي . . .) هو القيام باقتطاع ما يصلح لبناء كون مستقل بذاته (بورس يقول يجب اختراق المتصل لإنتاج علامة). وسيظل إدراك هذا الكون وفهمه وتأويله مع ذلك

مشروطا باستحضار ذاكرته الكبرى، أي محيطه المباشر وغير المباشر. فالتداخل بين الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي(3) يشكل الدعامة الأساس في الانتقال بين المتحقق من خلال التجلي المباشر للنص، في حين يتخذ الرجوع الدائم إلى الموضوع الديناميكي شكل ارتكاس ذاتي نحو لا وعي النص، فكل إحالة هي في واقع الأمر إسقاط غير مباشر لإحالة أخرى. لهذا يحتاج النص أحيانا إلى حسم في دلالاته. وفي هذا الاتجاه، فإن الانتقال من الموضوع الأول إلى الموضوع الثاني يتخذ، في تصور بورس، شكل أحكام دلالية (أحيانا منطقية) ضابطها الأساس هو المؤول والناظم لها هو السميوز.

وهكذا عوض البحث عن معادل "موضوعي" في عالم غير عالم النص بوجوهه المتحققة والضمنية أوالمشار إليها، وجب البحث في أشكال اشتغال نسيج السميوزيس ودورها في نسج خيوط عوالم نطمئن إليها ونتعامل معها باعتبارها جزءا من عالمنا الخاص وباعتبارها تشكل أقصى نقطة داخل السلسلة التدليلية. «فالسلسلة اللامتناهية من التمثيلات تحتوي على شكل مطلق الوجود هو ما يشكل نهاية السلسلة، فكل تمثيل يحتوي على تمثيل سابق عنه». (4)

فما هو مضمون مقولة السميوزيس وما هو موقعها ضمن الفعل الإنساني المتميز بقدرته على الإنتاج الدائم للمعاني؟ وما الرابط بين هذه السيرورة التدليلية وبين ما نطلق عليه "فرضيات القراءة" (ما

(3) حول الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.
(4) أمبيرتو إيكو: التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت 2000، ص 133.

يطلق عليه إيكو التخمين topic) من جهة، وبينها وبين القارئ الذي يستدعيه بناء معنى أو معاني نص ما.

تعد السميوز في معناها "العادي" والمباشر سيرورة متحركة لإنتاج الدلالة وتداولها واستهلاكها، سيرورة ستنتهي إلى الذوبان في فعل يتقمص مظهر العادة والقيم والتقاليد وكل أشكال السلوك التي تتحول مع الزمن إلى معيار يبنى على أساسه العنصر المتحقق. ويعد هذا الفعل من زاوية السميوز «عادة داخل الإنسان وقانونا داخل المجتمع» (بورس). وبعبارة أخرى، إن الأمر يتعلق بالنظر إلى الدلالة باعتبارها فعلا ينجز داخل سيرورة، لا معطى جاهزا يوجد بشكل سابق على الواقعة.

ولقد كان شارل سندرس بورس أول من أدخل مفهوم السميوز إلى ميدان السميائيات. بل لقد كان أول من أرسى دعائم نظام للتدليل وإنتاج الدلالات يمر عبر ميكانيزم خاص أطلق عليه اسم السميوز. والسميوز في نظره "**سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة**" **وتستدعي، من أجل بناء نظامها الداخلي، ثلاثة عناصر هي ما يكون العلامة ويضمن استمرارها في الوجود والاشتغال: عنصر أول يقوم بالتمثيل (ماثول) وآخر يشكل موضوع التمثيل (موضوع) وثالث وسيط بين الإثنين يشتغل كفعل للمفهمة هو ما يقود إلى الامتلاك الفكري " للتجربة الإنسانية في مظهرها الصافي "** (مؤول). [5].

استنادا إلى هذا التصور، فإن إنتاج دلالة ما يقتضي استحضار سيرورة تدليلية تقود من أول عنصر إلى آخر عنصر داخل سلسلة من

---

(5) انظر ما قدمناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الإحالات التي لا يمكن الإخلال بتتابعها وانتظامها دون الإخلال بنظام التدليل ذاته : فكلمة " شجرة " تدل لإننا نستطيع التمييز داخلها بين :

1- أداة للتمثيل (يتعلق الأمر بالمتوالية الصوتية التي نستعين بها من أجل استحضار عالم ذهني، وقد يتعلق الأمر بمادة أخرى للتمثيل).

2- شيء ما موضوع للتمثيل، (سواء كان هذا الشيء الموضوع للتداول واقعيا أو متخيلا أو قابلا للتخيل).

3- العالم الذهني (الفكر أو القانون) الذي يربط رمزيا بين الموضوع وأداة التمثيل. وهذا العنصر هو الذي يقوم بـ" تبرير " العلاقة الرابطة بين العنصر الأول والثاني.

إن غياب أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة سيؤدي إلى تدمير العلامة ومن ثم إلى تحجيم قدرتها على إنتاج دلالة ما.

إن هذا الترابط بين العناصر الثلاثة (والأمر يتعلق بكل الأشكال التي تنتجها التجربة الإنسانية) هو الذي يفسر ما قلناه سابقا عن الترابط بين الداخل والخارج في النص وفي التجربة الفنية ككل. فما دمنا لا نستطيع تحديد كنه أي شيء خارج أدوات التمثيل، فإن التجربة الإنسانية في كليتها تحضر عبر وجهها الرمزي، ولا يمكن إدراكها إلا عبر هذا الوجه.

ويمكن القول، في هذه الحالة، إن الدلالة ليست معطى جاهزا يوجد خارج العلامات وخارج قدرتها في التعريف والتمثيل، فالمعنى لا يوجد في الشيء وليس محايثا له، إنه يتسرب إليه عبر

أدوات التمثيل، وهو ما يشير إلى أن إدراك الكون ليس مباشرا، فالشيء لا يوجد في ذاته، بل مثواه الوعي الذي يدركه، إنه لا يتسلل إلى الوعي إلا عبر أشكال رمزية مختلفة. «فالإنسان لا يعيش داخل كون مادي خالص، بل داخل عالم رمزي. وتعد اللغة والأسطورة والفن والدين عناصر من هذا الكون، إن الأمر يتعلق بالخيوط التي تنسجها الرمزية، وهو ما يشكل اللحمة المتشابكة للتجربة الإنسانية»(6) ولهذا فإن المعنى لا يوجد خارج اللغة، إنه مبثوث في فعل الإبلاغ والكلام والإنتاج.

وعلى هذا الأساس يمكن فهم البناء النظري الذي تندرج ضمنه هذه المقولة. فالتصور النظري العام الذي يقدمه بورس للسميوز يستند إلى مبدأ سميائي يقول بإمكانية وجود إحالة من المحتمل ألا تتوقف عند حد بعينه «فإذا توقفت سلسلة المؤولات هاته عند حد بعينه، فلن تصل العلامة إلى حالتها المثلى»، (7) فعندما يتم التمثيل ويفصل النص عن قصدية صاحبه تنفلت الدلالة من عقالها، ويصبح إيقافها عند حد بعينه أمرا مستحيلا. فالتمثيل يحيل على الشيء الممثل وفق مبدأ للتوسط، ولا يقود التوسط إلى تعيين معنى، وإنما يفتح السيرورة الدلالية على كل الاحتمالات الممكنة.

وبعبارة أخرى، فإن الفكر لا يمكن أن يترجم إلا في فكر آخر، فمادام الشيء في حد ذاته علامة، فلن يكون مجديا البحث عن إحالة خارج ما يرسمه الفكر، أي خارج ما ترسمه العلامات داخل نسيج السميوز.

(6) Ernest Cassirer : Essai sur l'homme, éd Minuit, Paris, 1975, p 43

(7) أمبيرتو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ص 128

ورغم ذلك، إذا كنا لا نستطيع تصور نهاية بعينها للنفق التأويلي، فنحن قادرون، مع ذلك، على رسم بداية له. فالأول محدد والنهائي محتمل، والبداية خطوة أما النهاية فدروب تسير في جميع الاتجاهات بلا أفق ولا تخوم. ولهذا يمكن القول إن فعل العلامة مرتبط داخل السميوز بنشاطين مختلفين ومتكاملين يقود أحدهما إلى الآخر :

1- النشاط الأول مرتبط بفعل إنتاج الدلالة في مستواها الأولي، أو مستواها التقريري الحرفي. فالطابع " الموضوعي " (أولنقل الطابع البيذاتي) للمعنى يتحدد من خلال وجود مادة أولية منها تشتق كل المعاني " النفعية " الموجهة نحو الاستجابة لحاجات أولية. فالعلامة تعين وتسمي وتشير، وفي هذه الحالة، فإنها لا تتجاوز حدود الإشارة إلى ما هو معطى من خلال حدود فعل التمثيل ذاته : أي ما يخص معنى العلامة ومعنى النص ومعنى الواقعة وذلك ما تقتضيه عناصر التجربة المشتركة.

وبما أن الخروج من دائرة التعيين إلى ما يشكل بحق عالم التأويل بمفهومه الواسع يقتضي التخلص من مقتضيات الإحالة المباشرة (الإحالة الأولى) وإعادة ترتيب العناصر وتنظيمها وفق علاقات جديدة، فإن الضمانة الوحيدة لسلامة هذه الحركة التدليلية وقدرتها على إنتاج الدلالات المتنوعة هو وجود هذا "الحد الأدنى المعنوي" المرتبط بتجربة حياتية لا تتجاوز حدود الاستجابة للبعد النفعي فيها (يمكن بالتأكيد في هذه الحالة التساؤل عن فحوى النفعي ومتى تكون الحاجة نفعية أو مرتبطة بلذة. وهنا أيضا يقتضي الأمر تحديد السياق المباشر لفعل العلامة). وبعبارة أخرى، فإن التأويل

اللامتناهي يقتضي وجود مدلول أولي (كيفما كان وضعه) تبنى على أساسه مجمل المعارف التي تنتجها حركة الإحالات اللاحقة. وهذا ما يقودنا إلى الحركة الثانية ضمن فعل السميوز.

2- النشاط الثاني هو الذي يقذف بالعلامة من موقعها التعييني المباشر، إلى عالم جديد من الدلالات؛ وهذه الدلالات ليست معطاة بطريقة مباشرة من خلال ما يبدو من ظاهر العلامة، بل تشير إلى تجربة ضمنية، فـ «العلامة تحتوي أو تشير إلى مجمل مكوناتها الأكثر إيغالا في القدم» (8). فإذا كانت الإحالة الأولى (أو الإحالات الأولى) (9) تحدد منطلقا لسيرورة ما، فإن الإحالات اللاحقة تخلق سلسلة من المسارات التأويلية التي تدخل عبرها الذات المؤولة (القارئ) كعنصر أساس في عملية إنتاج الدلالات المتنوعة.

ومع ذلك، لا وجود لفاصل بين النشاط الأول والثاني، فلا يمكن تصور واقعة تكتفي بإنتاج دلالة واحدة خاصة بالتعيين، وبالمثل لا يمكن تصور فعل تأويلي لا يسلم بوجود مادة (نص) سابقة عنه. فوظيفة اللغة لا يمكن أبدا أن تقف عند حدود الوصف المباشر للكائنات والأشياء. ولهذا السبب فإن النشاط التأويلي، وفق الغايات السميوزية كما أشرنا إليها سابقا، المعلنة أو الضمنية، فعل كلي، إن كانت آثاره المباشرة هي تعيين دلالة ما (تحديد لتخوم واقعة ما) فإن عمقه لا تحدده سوى الإحالات التي تجعل من أي

Umberto Eco: Les limites de l'interprétation, éd Grasset, Paris 1990, p 371. (8)

(9) أو الإحالات الأولى، فبإمكان كلمة واحدة أن تدل من الناحية التقريرية البحث على مرجعين مختلفين: العين " العضو البصري " والعين "الماء الجاري".

نسق سميائي بؤرة للتوالد الدلالي اللامتناهي. و« التأويل اللامتناهي أمر ممكن عند بورس. فالواقع يمثل أمامنا باعتباره متصلا (continuum) حيث لا وجود لكيانات مطلقة» [10].

ورغم إقرارنا المبدئي بأن السميوز لامتناهية في الزمان وفي المكان، فإن ثقل الحاجات الإنسانية الدائمة - التواصلية منها أساسا - يقود إلى تحجيم هذه الطاقة الجبارة وتسييجها ضمن سياقات تمكن الذات من الاستقرار على دلالة بعينها. وبناء على ذلك فإن «غاياتنا المعرفية تقوم بتأطير وتنظيم وتكثيف هذه السلسلة غير المحددة من الإمكانات. فمع السيرورة السميوزية ينصب اهتمامنا على معرفة ما هو أساس داخل كون خطابي محدد» [11]. وهذا يعني أن السيرورة التأويلية - رغم كل ما قلناه - متناهية من حيث التجسيد العملي، أي من حيث ارتباطها في التحقق الفعلي بسياقات خاصة تمنح وحداتها هوية خاصة.

وهذا ما يشكل الفاصل الحقيقي بين ما اصطلح عليه ب " المتاهة التأويلية " (dérive interprétative) وبين السميوز في التصور الذي يقترحه بورس. ففي المتاهة التأويلية تنبعث الدلالة من فعل العلامة كسيرورة بلا رادع ولا ضفاف ولا حدود. فما نحصل عليه من معرفة، بعد أن يستنفد الفعل التأويلي طاقاته، لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل؛ فبإمكان أية علامة أن تحيل على أية علامة أخرى، كما بإمكان أي شيء أن يشير إلى شيء آخر. «وفي هذه

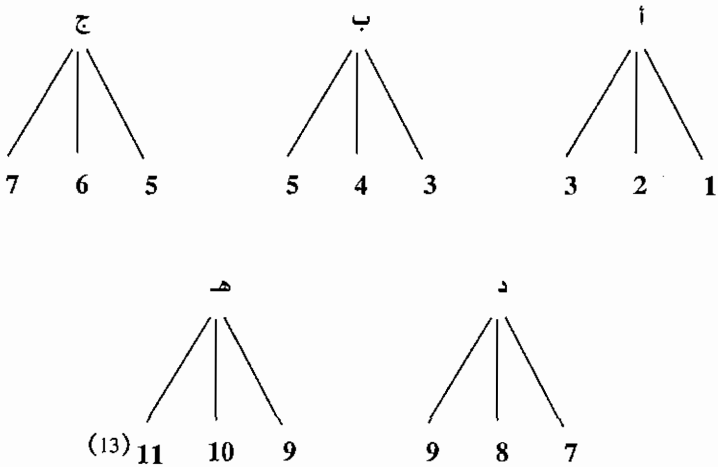
---

(10) إيكو *les limites* p 378

(11) نفسه ص 371

الحالة فإن الإيحاءات تنتشر بشكل سرطاني بحيث إننا كلما انتقلنا إلى مستوى أعلى تم نسيان العلامة السابقة أو تم محوها، فجوهر اللذة التي تخلقها المتاهة تكمن كلية في الانتقال من علامة إلى أخرى، ولا غاية لهذه الرحلة اللولبية بين العلامات والأشياء سوى هذه اللذة ذاتها »[12].

ويقدم إيكو المثال التالي على هذا النوع من التأويل.



[13]

فلا وجود لأي رابط بين " أ " و" ه " ، ورغم ذلك يمكن الحديث عن سلسلة تقود من " أ " إلى " ه " استنادا فقط إلى وجود علاقة عائلية بين النقطة الأولى والنقطة النهائية، هذا إن اعترفنا بوجود نقطة نهائية أصلا. فالسميوز في هذه الحالة تتخلص من كل إرغاماتها المرتبطة بالتمثيل الأول (الإحالة على معنى لا يستدعي

---

(12) نفسه ص 373

(13) أمبيرتو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ص122

سوى التجربة المشتركة لكي يدرك) لكي تسلم نفسها للشخص الذي يقوم بالتأويل لكي يأتي بكل التأويلات الممكنة حتى أشدها غرابة وعبثية. وبهذا المعنى لا يجب النظر إلى التأيويل باعتباره محددا بغاية بعينها، فغايته المثلى هي ألا يصل إلى أية غاية. (14).

وفي هذا المجال يقدم راستيي في كتابه " الدلالة التأويلية " مثالا يصدق، إلى حد بعيد، على الحالة التي نحاول تشخيصها. يقول المثال :

" أنت مساعد، ستظل الطماطم خضراء "

(Vous êtes assistant, les tomates resteront vertes) . (15)

تتكون هذه الجملة، كما هو واضح من جزءين ظاهريا لا رابط بينهما من حيث الدلالة المباشرة التي تحيل عليها الوحدات المكونة للجملة. فأن يُربط مصير الطماطم بمصير الأستاذ المساعد، فذاك أمر في غاية الغرابة، فلا وجود لأي عنصر في الجزء الأول يسمح لنا بربطه بالملفوظ الثاني، فالأول تحديد لرتبة داخل السلم الجامعي، والثاني يشير إلى حالة من حالات الطماطم.

ومع ذلك فإن راستيي " نقب " كثيرا و "نبش " في ذاكرة الكلمات، و "عدل" و "رتب" و "أعاد صياغة العلاقات الفعلية والممكنة" بين جزءي الجملة " ليكتشف " في النهاية وجود رابط

---

(14) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ففي هذا الفصل حاولنا التمييز بين نوعين من التأويل. ما يقدمه بورس على شكل سميوز لا متناهية، وبين ما تقدمه التفكيكية مثلا باعتباره متاهة تأويلية.

(15) François Rastier : Sémantique interprétative , éd P U F , Paris 1987

بين الجزء الأول من الجملة وجزئها الثاني، وهو ما يشكل، في نظره، انسجام الجملة وإمكانية تداولها باعتبارها كونا دلاليا "مقبولا". وهذا الرابط يتحدد من خلال الفصل بين كيانين :

1- كيان المؤسسة الجامعية التي تحكمها هرمية في الإطارات تجعل من الأستاذ "المساعد" أدنى إطار وأوله، فهو إذن يشكل مرحلة البداية في الحياة المهنية للأستاذ، وفي هذه الحالة نكون أمام المعنم / بدئي/ .

2- حالة الطماطم التي تمر بمراحل لكي تصبح صالحة للاستهلاك. فهي تنتقل من الفجاجة إلى النضج من خلال الانتقال من اللون الأخضر إلى اللون الأحمر. وفي هذه الحالة فإن اللون الأخضر يحيل على البداية، أي يشير إلى المعنم / بدئي/ .

فالملفوظان استنادا إلى ذلك يشتركان في معنم واحد هو / بدئي/ . والخلاصة أن الجملة تحتمل الدلالة التالية : " أنت مساعد وستظل مساعدا، ولن تعرف أيت ترقية تنقلك من رتبة المساعد إلى رتبة أعلى، تماما كما أن الطماطم التي "ستظل خضراء " سيصيبها العفن وتفسد.

والملاحظ أننا في هذه الحالة لا نبحث عن تأويل خاص للجملة، أو عن إمكانات متنوعة للتأويل داخلها، وإنما نبحث عما يجمع بين أجزائها المتنافرة، أي ما يبررالعلاقة بين الجزء الأول والثاني داخل الجملة. والدليل على ذلك أن بإمكاننا أن نضع مكان " المساعد" أي موظف تخضع ترقيته لتسلق مراتب بعينها (الطبيب والممرض والمهندس . . .).

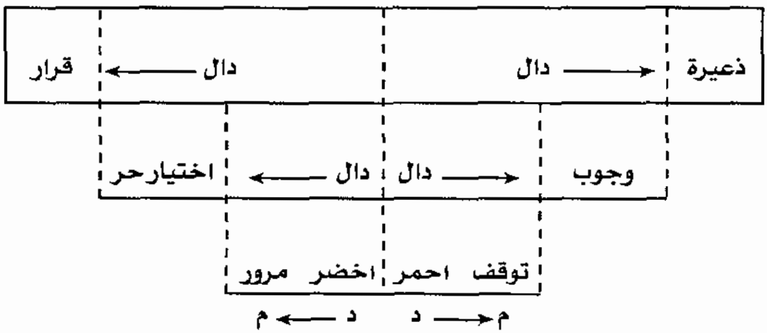
وعلى النقيض من ذلك، فإن مفهوم السميوز، في تصور بورس، يشير إلى شيء مخالف تماما لهذا. فعلى عكس المتاهة التي لا تستقر على حالة بعينها، فإن الإحالات المتتالية التي تحيل عليها السميوز لا تقطع صلة اللاحق بالسابق، كما أنها لا تلغي الروابط بين عناصر الشبكة التأويلية الواحدة. فالعلامة تكتسب مزيدا من التحديدات كلما أوغلت في الإحالات، والانتقال من مؤول إلى آخر. من هنا، فإن الحلقات المشكلة لأي مسار تأويلي تقود إلى إنتاج معرفة أعمق وأوسع من تلك التي تقدمها العلامة في بداية المسار.

وهكذا فإن ما نحصل عليه من معرفة في نهاية السلسة هو تعميق للمعرفة التي تطرحها العلامة في حدها البدئي. فما تقوم به الإحالات هو تعميق للمعرفة السابقة لا نفي لوجهها البدئي. وهذا شيء واضح في تصور بورس للعلامة، فهي عنده «شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر»، «فهي تحيل على علامة موازية أو علامة أكثر تطورا».

ولتوضيح هذا التوالد، نستعين بمثال يورده إيكو، في سياق غير سياقنا، لكنه يصدق مع ذلك على حالتنا. يقول المثال: «في مواجهة الأضواء المنظمة للسير في مفترق طرق ما، أعرف أن " الأحمر" يعني/ التوقف/، في حين يعني " الأخضر" / المرور/. لكني أعرف أيضا أن الأمر / قف/ يعني / إجبارية /، في حين أن السماح بـ/ مرور/ تعني " اختيار حر" (فبإمكاني عدم اجتيازالطريق). وبالإضافة إلى ذلك، فأنا على علم بأن / الإجبارية/

تعني " ذعيرة نقدية " ، في حين أن / الاختيار الحر / يدل تقريبيا على ما يلي " يجب اتخاذ قرار " . » (16)

ويقدم للمزيد من التوضيح الترسيمة التالية :



وبالتأكيد ففي هذا المثال برهنة كافية على نوعية هذا التوالد الدلالي وميكانيزماته المرتبطة بالإحالات التي تطلق عنان السميوز لارتياد مناطق دلالية من كل الأنواع والأحجام. فداخل هذا التوالد هناك :

1- علاقة بين الوحدات قائمة على النمو التصاعدي لـ " الكمية المعنوية " التي تتوفر عليها النواة الدلالية المعطاة مع عملية التمثيل الأولى. فكل إحالة تضيف قدرا من الدلالة إلى الإحالة السابقة عليها.

2- إن نقطة " النهاية " ، (إنها نهاية مفترضة، فهي كذلك ضمن سياق خاص فقط) داخل هذه السيرورة التدليلية، تقوم بتعميق معرفتنا بما وضع للتداول في الإحالة الأولى. وهكذا، فإن معرفتنا

---

(16) Umberto Eco : le signe, éd Labor, 1988, p102

بالأحمر قد ازدادت وتنوعت دروبها دون أن تفقد، مع ذلك، الصلة بالدلالة التي منحت لها في بداية السلسة.

من هنا، فإن انتفاء " الطابع المطلق " عن الكيانات المشكلة للكون الإنساني، هو بالضبط ما يَحُد، من زاوية أخرى، من سلسلة الإحالات وتكاثرها. فالقول بنسبية الواقعة معناه القول إن ما يبدو صحيحا في هذا السياق ليس كذلك بالضرورة في سياق آخر وضمن شروط أخرى. وبناء على هذا، فإن «التأويل ليس وليد بنية الذهن البشري، وإنما هو نتاج للواقع الذي تقيم دعائمه السميوز»(17).

ووجود أشكال خاصة من " المؤول " دليل على أن الحركة التأويلية تسير في اتجاه انتقاء دلالة بعينها يمكن أن تستقر عليها الذات التي تقوم بعملية التأويل. فالغاية من المؤول النهائي داخل سميائيات بورس هي إيقاف سلسلة الإحالات " السرطانية " التي قد تهدد انسجام الكون الدلالي. فالمؤول قد لا يكون علامة في تصور بورس، فهو قد يحيل على فعل، فالفكر " يتحلل " ذاتيا ليذوب في ممارسة بعينها. «فالسميوز في هروبها اللانهائي من علامة إلى أخرى ومن توسط إلى آخر تتوقف لحظة انصهارها في عادة، لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل. وكيف يؤثر الإنسان في العالم ؟ إنه يفعل ذلك من خلال علامات عرفية، وكيف يمكن وصف العادة إن لم يكن ذلك من خلال علامات تعريفية» (18).

وتلك هي الإضافة الحقيقية لبورس. فعوض أن يتحدد التأويل

(17) Eco: les limites, p 382.

(18) Umberto Eco: le signe, p 205.

من خلال إضافة دائمة لمؤولات جديدة لا تحد من حيث العدد والطبيعة، فإن بورس يتصور إمكانية انصهارالتأويل في فعل أو في ما يسميه بـ " العادة " (أو قاعدة للفعل). وهذا النوع من المؤولات التي تضعه السميوز كركيزة لتوجيه التأويل أو إيقافه، يطلق عليه بورس المؤولات المنطقية النهائية، " أي ما يشكل سندا للفعل والتأثير في الأشياء " .

في ضوء كل ما سبق، فإن النص عندما يتحدد ككيان مستقل الوجود من حيث قدرته على الانفصال عن المادة التي تؤثث الكون الإنساني كله- أي عما يشكل الوجه المتصل للكون- فإن سلسلة المؤولات تميل إلى الانكفاء على نفسها وتبحث عن شكل دلالي تستقر عليه.

إن النص، من هذه الزاوية إذن، لا يشتمل على معنى، ولا حتى على معاني، ولا يضم بين دفتيه دلالة نهائية كلية أو جزئية، بل هو خزان كبير لسياقات بالغة التنوع والتعدد والتجدد. وهذا ما يمنح الذات المؤولة موقعا بالغ الأهمية. فلها وحدها الصلاحية في تحيين هذه الدلالة أو تلك ضمن هذا المسارالتأويلي أو ذاك، ضمن شروط "الانتقاء السياقي" والظروف المقامية الخاصة بكل فعل قراءة.

وفي هذه الحالة، فإن كل شيء يقاس بالعلاقة الموجودة بين النص والقارئ (أي بين العلامة ومستهلكها)، فضمن هذه العلاقة تتحدد القراءات وتتعدد التأويلات وتتناسل. وعلى هذا الأساس أيضا، فإن الاعتراف بوجود هذه العلاقة هواعتراف- ضمني أو صريح - بوجود مادة دلالية أولية سابقة في الوجود عن تدخل الذات

القارئة، وإلا لما أمكن الحديث عن قراءات متعددة لنفس المادة المضمونية الأولية.

ففي المثال السابق الذي يقدمه راستيي، لا يمكن أن نتغاضى عن وجود المساعد والطماطم كيفما كانت التأويلات التي يمكن إعطاؤها لهذا لملفوظ. فحتى في الحالة التي توضع فيها هذه الجملة داخل قنينة ليلتقطها بعد 100 عام شخص ما، فإنه سيقول: لقد كان هناك في فترة تاريخية سابقة علينا شيء اسمه "الطماطم" و كائن اسمه "المساعد"، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك إمكانية للربط بينهما.

ويمكن النظر إلى هذه الاستقلالية - على عكس ما يعتقد القائلون بلانهائية التأويل - باعتبارها ضمانة أساسية ووحيدة على غنى التأويل وتعدديته. إلا أن ذلك لا يعني استقلالية النص بذاته ومعانيه، بل تشير إلى شيء أهم من ذلك بكثير. فوجود منطلق ما معناه أننا لا نؤول ما بداخلنا، ولكننا نقوم، عكس ذلك، بوضع معرفتنا (موسوعتنا على حد تعبير إيكو) في خدمة مادة مضمونية يحتوي عليها النص وتعد منطلقا للتأويل وأصلا له.

من هنا، يمكن اعتبار كل قراءة خلقا لسياق جديد يستمد مشروعية وجوده من المادة الموضوعة للتأويل. وبما أن "الوعي الخالق للعمل الفني" وعي جزئي بالضرورة، فإن النشاط التأويلي لا يمكنه أن يكون إلا من نفس الطبيعة، وذلك لارتباطه بالسياق الثقافي الذي ينتج داخل النص. لذا فإن هذا النشاط يصل في مرحلة ما إلى استنفاد كل طاقاته الإبداعية ليتوقف عن إنتاج دلالات جديدة،

ليفسح المجال لوعي جديد ضمن شروط تاريخية جديدة لينتج دلالات تنسجم وحجم الموسوعة الجديدة.

إن هذا البعد الجديد الخاص بالتلقي والذي يضاف هنا إلى السميوز هو الذي يبرر الحديث عن مفهوم آخر لا نعثر عليه في تصور بورس. فلقد نبهنا بورس مرار أن المؤول لا يعني الشخص الذي يقوم بالتأويل، فالعلامة تنتج معناها حتى في غياب أي شارح.

لذا فإن السميوز تبدو أحيانا وكأنها فعل مفصول عن الذوات التي تقوم بالقراءة، إنها تشتغل في انفصال عن محفل يجسدها في فعل تأويلي ما. ومن هذه الزاوية يضيف إيكو مفهوم التخمين، الذي يشير إلى ما ظل مبهما وغامضا في تصور بورس ألا هو دور المتلقي في إنتاج الدلالات.

ويجب التنبيه أن التخمين لا يمكن اعتباره ثيمة، فالثيمة موجودة في النص، ولا يمكن عده محورا فالمحور يربط بين طرفين داخل مقولة، إنه على العكس من ذلك، وكما سنرى ذلك لاحقا، فرضية يستند إليها القارئ من أجل إنجاز قراءاته.

التخمين: فرضية للقراءة والتأويل

ومن هذا المنطلق بالذات، ووفق غايات تأويلية محض، أدخل إيكو إلى التداول النقدي مفهوم التخمين (التخمين) (19) ليتشل

(19) يرفض إيكو استعمال الثيمة ويفضل استعمال التخمين، لأنه يرى في التخمين ظاهرة تداولية لها علاقة مباشرة بالفعل الذي ينجز القراءة، في حين أن الثيم أو التناظر لهما علاقة بالمضمون الدلالي للنص أو الواقعة.

التلقي من وهم التعدد التأويلي المطلق، ومن الفهم الأحادي للنص في الآن نفسه. فالنص متعدد القراءات ولكنه ليس لانهائي التأويلات.

وكما سنرى لاحقا، فإن هذا المفهوم ليس مرتبطا بالمادة المضمونية ولا محكوما بطبيعتها، بل هو رهين في وجوده واشتغاله بالذات التي توجد في تماس مع هذه المادة. فالتخمين، من هذه الزاوية، ليس ثيمة وليس حكما مسبقا على المعنى، بل هو تصور أولي و "حدسي" للمعنى. إنه يمثل، عند القارئ، الأشكال الأولى لمقاربة المعنى وفق خطاطة يتبناها هذا القارئ ويباشر وفقها عمليات التأويل اللاحقة.

ويعرف إيكو التخمين «بأنه فرضية مرتبطة بالقارئ الذي يقوم بصياغتها بطريقة بسيطة على شكل أسئلة من نوع " ماذا يريد النص قوله ؟ " لتترجم في أجوبة من نوع " ربما يتعلق الأمر بالقضية الفلانية " . ويعد من هذه الزاوية أداة سابقة على النص. ولا يقوم النص إلا بافتراضها إما ضمنيا وإما بالإشارة إليها صراحة من خلال مؤشرات مثل العنوان أو العناوين الفرعية أو من خلال الكلمات / المفاتيح. وإلى هذه الفرضية يستند القارئ في تفضيله لبعض الخصائص الدلالية للوحدات المعجمية التي يتألف منها النص واستبعاده لأخرى بغية الوصول إلى الانسجام التأويلي الذي يُطلق عليه التناظر» . [20].

إن التوسط الذاتي الذي يشير إليه مفهوم التحمين يفترض القيام

(20) Umbero Eco : Lector in fabula , éd Grasset , *1985* p *119*

بفصل بين المضامين التي يحتضنها النص وبين العمليات الذهنية المرافقة لأي نشاط تأويلي. فما بين الذات القارئة التي تقوم بالتجسيد (بمفهوم جماليات التلقي)، أي تحيين مجمل معطيات الموسوعة الثقافية وفق حاجات يفترضها النص لكي يسلم مفاتيح قراءاته، وبين المعرفة التي قد نحصل عليها من خلال فعل التأويل، يتسرب "الانتقاء السياقي" كحد فاصل بين التأويل الذي لا تحكمه ضفاف ولا حدود، وبين مفهوم "المسار التأويلي".

ولهذا السبب جعل إيكو من مفهوم التخمين الأداة المركزية في التحكم في دهاليز السميوز، فهو «يقوم بتقليص حجمها وتكثيفها، كما يقوم أيضا بتحديد أوجه التحيين داخلها»[21]، أي تحديد مجمل الممكنات التأويلية القابلة للتجسيد من خلال القراءات المتنوعة. فما يكشف عنه التخمين ليس دلالة قارة وثابتة، بل يقوم بعملية جرد للمسارات التأويلية التي يسمح بها البناء النصي ذاته.

إن الأسئلة التي يمكن أن يطرحها القارئ على النص، وكذا الدروب التي يحاول رسمها ليلج من خلالها إلى عالم النص، تلقي المزيد من الضوء على هذا المفهوم. فبما أن القراءة الشمولية للنص (فعل تأويلي جامع لكل السياقات) تدخل في باب المستحيلات (إلا في الحالة التي يقرر فيها القارئ تبني الاختصار والتكثيف وبالتالي التضحية بكل ما لا يستقيم داخل استراتيجيته التأويلية، وفي هذه الحالة نكون أمام قراءة جزئية أيضا)، فإن التأويل - من خلال مفهوم التخمين ذاته- مرتبط بالانتقاء السياقي.

(21) نفسه ص 115.

والانتقاء السياقي معناه خلق مسار تأويلي تنظم وفقه عناصر النص وتحين بمقتضاه الخطاطة الثقافية الخاصة بكل قارئ، «فما يشكل التناظر الدلالي (isotopie) ليس تواتر المعانم (sèmes) الموضوعة للتداول، بل افتراض تناظر ما، هو الذي يقود إلى تحيين بعض المعانم، إن لم نقل كلها. ويمكن التأكد من هذا الأمر من خلال الوقائع المحسوسة. ويتعلق الأمر هنا بتطبيق مبدإ عام : إن المعنى، حتى ولو تعلق الأمر بأدنى المستويات الدلالية، هو نتاج عمليات تأويلية محكومة باستراتيجية» [22] (التشديد من عندنا).

وضمن هذا الانتقاء السياقي تدخل كل "قواعد الإحالة" التي يبنى النص ويؤول وفقها : الإحالة المباشرة على عناصر النص، الإحالة على ما يقترحه الاختيار التأويلي، الإحالة التي تقود إلى تحيين ممكنات دلالية واستبعاد أخرى ضمن نفس الواقعة. وهذه الإحالات هي ما يشكل محيط النص وما يشكل سياقاته وشروط إنتاجه وقراءته أيضا. فكل هذه القواعد تساهم في بلورة كون دلالي منسجم يصاغ انطلاقا من إعادة تنظيم عناصر تنتمي إلى عالم يعج بالممكنات المتنوعة التي تصل إلى حد التناقض أحيانا.

وحكاية ذلك الفيلم الإفريقي و" الزوبعة التأويلية " التي أثارها معروفة جدا. فقد طلع علينا أحد المخرجين الأفارقة بفيلم يحمل عنوان : " Les dieux sont tombés sur la tête " (سقطت الآلهة على الرأس) يحكي قصة قبيلة مهملة في أدغال إفريقيا حيث السكينة والهدوء، وحيث تغيب عن العلاقات الإنسانية عقدة التملك

(22) Rastier F: Sémantique interprétative, éd P U F, Paris 1987, p 12.

والتسلط. في هذا الجو المثالي يلقي طيار كان يحلق فوق سماء تلك القبيلة بقنينة كوكاكولا فارغة لتسقط وسط القبيلة محدثة "دمارا اجتماعيا كبيرا". فمنذ تلك اللحظة ستفقد هذه القبيلة انسجامها ووحدتها وسلمها الاجتماعي نتيجة للمحاولات المتعددة لـ "تأويل" هذه القنينة وتحديد وظيفتها. وبعد محاولات عديدة لاستخدام هذه القنينة والاستفادة من "بركتها" (فهي قد تكون هبة من الآلهة)، يقرر أهالي القبيلة التخلص منها بإلقائها في "آخر الدنيا" وآخر الدنيا في عرف القبيلة هو البحر. حينها تبدأ مغامرات بطل الفيلم مع "الآثار" والحرب والانقلابات الخ.

ولقد قُرئ هذا الفيلم من زوايا متعددة. نكتفي هنا بذكر قراءتين متناقضتين كليا. فالقراءة الأولى رأت في الفيلم قمة في تصوير "الصفاء الإنساني والنقاء الحضاري"، فالفيلم يحتفي ويمجد "الإنسان" الذي لم تستعبده الآلة والملكية بعد وظل متشبثا بإنسانيه وقيمه بعيدا عن الحروب والقتل، ومن ثم فالشريط دعوة صريحة إلى التشبث بهذا النمط من الحياة ورفض كل ضروب التمدن والحضارة.

أما القراءة الثانية فهي نقيض للأولى. فقد رأت في الفيلم عملا عنصريا مشينا، فهو يعمل بكل الوسائل على تشويه صورة إفريقيا، إما من خلال التركيز على انقلاباتها الدموية وعلى تخلفها في استعمال الأسلحة التي تستوردها من الغرب، وإما من خلال تصوير حياة كائنات بشرية تعيش خارج "الحضارة" وخارج "التاريخ". ومن ثم فهو دعوة صريحة أيضا إلى الإبقاء على هذا "التخلف" من أجل تأبيد الاستغلال والتبعية.

وما يهمنا في القراءتين معا ليس مضمونهما - فتلك حكاية أخرى قد تدفع بنا إلى تقديم قراءة ثالثة لا علاقة لها بالقراءتين السابقتين- وإنما الطريقة التي يستند إليه فعل التأويل. فالقراءتان معا تنطلقان من نفس المعطيات التي يقدمها الفيلم على مستوى بنائه المباشر، وهي المعطيات التي يراد لها أن تحيل على كون أو أكوان دلالية بعينها دون غيرها. إلا أن كل قراءة حاولت إدراج هذه العناصر ضمن موسوعة ثقافية سابقة، وفقها تتم إعادة تنظيم العناصر من إجل إنتاج تأويل خاص.

ودلالة هذه العملية أن التأويل لا يوجد في تلك العناصر وليس مرتبطا بتنظيمها المباشر، بل يبزغ من امتزاجه بتلك المعرفة التي تأتي بها كل قراءة إلى النص. لذا يمكن القول بأن الأمر يتعلق في القراءة الأولى كما في القراءة الثانية بمسارتأويلي له قواعده ومنطقه ونتائجه الدلالية.

إن الأمر يتعلق بتوجيه للقراءة. والتوجيه من زاوية السميوز هو بناء مسار تأويلي يقود إلى تحيين بعض عناص الواقعة واستبعاد أخرى (والاستبعاد لا يعني الحذف، بل يعني التخدير). فالطوبيك إذن لا يكشف عن خبايا النص، وليس في مقدوره طرح سؤال يجيب عن كل الاحتمالات التدليلية التي يشتمل عليها النص. إنه انتقائي، وكل انتقاء هو جواب جزئي- صريح أوضمني- عن سؤال جزئي أيضا. والجواب عن هذا السؤال يقتضي إعادة تنظيم عناصر النص وفق صيغة السؤال الأول.

وليس غريبا أن يرد إيكو التخمين إلى "الفرضية" "abduction"

(انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب الفقرة الخاصة بأنواع المؤول). فعلى عكس القياس والاستنباط، فإن الافتراض، في تصور بورس، لا ينتج معرفة ولا يعمل على إشاعتها، إنه فقط تطبيق لحالة نفترض أنها عامة دون التأكد من صحتها. لهذا فـ «تحديد التخمين معناه إقامة افتراض يخص الانتظام السلوكي للنص. وهذا الانتظام هو ذاته الذي يحدد تخوم النص ويحدد في الآن نفسه انسجامه». (23).

إن انسجام النص ليس معطى بشكل سابق على الذات التي تقرأ وتؤول، وليس هناك انسجام واحد. فكل قارئ يخلق، انطلاقا من السؤال الذي يضعه على النص، انسجامه الخاص. ولنا في مثال الفيلم السابق دليل على ذلك. فالعنصر الواحد قد يدل ضمن أكثر من مسار تأويلي، وهو لا يدل على نفس القيمة الدلالية بل قد يشير إلى قيم متناقضة.

إن مردودية السميوز، انطلاقا من هذا، لا تستند إلى حركتها الذاتية وقدرتها على توليد أكبر " كمية " من المعاني، بل تفترض وجود التخمين، وهو وحده الذي يحدد لهذه السميوز حجمها، سعتها أو ضيقها، امتدادها أو انحصارها. « فالسيناريوهات والتمثيلات المعنوية قائمة على أساس وجود سميوز لا متناهية. وباعتبار طبيعتها هذه، فإنها تستدعي انخراط القارئ ودعوته إلى تحديد متى يقوم بتوسيع دائرة التأويل اللامتناهي هذا، ومتى يكون مدعوا إلى إغلاق هذه الدائرة» (24).

---

(23) Eco :Lector in Fabula p 117

(24) Eco :Lector in Fabula p 113

إن هذه الحركة لا يمكن أن تتم إلا من خلال افتراض وجود تصور مسبق عن المعنى تختزنه الموسوعة الثقافية للقارئ. وفي هذه الحالة، فإن التخمين، المفهوم الذي يقترحه إيكو، لا ينهض صمام أمان على مصداقية القراءات وصحتها، فتلك مسألة من طبيعة أخرى، وإنما يشير إلى الطابع المنظم للفعل التأويلي، أي تنظيم الدلالة في مسارات تأويلية.

والخلاصة أن كل قراءة هي خلق لسياقات، وكل سياق ليس سوى تطبيق لفرضية التخمين. وإلى حين تجسدها في سياق خاص تظل السميوز لا متناهية. «هي تغلق في كل لحظة ولا تغلق أبدا. ذلك أن نسق الأنساق السميائية الذي يبدو، بشكل مثالي، ككون ثقافي مفصول عن الواقع، يقود في الحقيقة إلى الفعل في العالم لتغييره. إلا أن كل فعل تغييري يتحول بدوره إلى علامة تعلن عن ميلاد سيرورة سميوزية جديدة». (25) وهكذا دواليك. فهناك من جهة الرغبة في تجاوز كل الحواجز وتخطي كل الإرغامات، وهناك من جهة ثانية الغايات النفعية التي تفرض على الذات توقفا في لحظة بعينها، " أي إحالة العلامة على قاعدة للفعل تطمئن إليه الذات" . وتلك هي الطبيعة الرابطة بين السميوز كفعل تأويلي لا محدود وبين التخمين، الفرضية الانتقائية التي تسيج القراءة بأسئلة قبلية.

«إن هذا التصور الخاص للسميوز باعتبارها فعلا قد يكون لا متناهيا يعد إسهاما هاما في نظرية اللغة . فاللغة تبدو في هذا التصور

(25) نفسه ص 57

باعتبارها ممارسة إنسانية أفق تحيينها هو التاريخ باعتباره زمنية إنسانية. فحقيقة اللغة لا تكمن في الكشف عن كون مرجعي ثابت بشكل نهائي، ولكنها إنتاج له »[26].

(26) Enrico Carentini: L'A ction du signe, éd Cabay- éditeur, Bruxelles, 1984, p 27.

المراجع

- **Benveniste (Emile) : Problèmes de liguistique générale II** , éd Gallimard 1974
- **Calvet de Magalhaes (Theresa) : Sigue ou Symbole ;Introduction à la sémiotique de C S Peirce** Ed Cabay 1981
- **Carontini (Enrico) : Action du signe,** Ed Louvain-Laneuve 1984
- **Cassirer, Ernest: Essai sur l'homme,** éd Minuit, Paris, 1975
- **Christiane Chauviré: Peirce et la signification**, introduction à la logique du vague, Edi: PUF , 1995
- **Deledalle (Gérard) : La philosophie Americaine**, éd, Nouveaux horizons, 1978
- **Deledalle (Gérard) : Théorie et pratique du signe**, éd Payot , 1979
- **Deledalle (Gérard) : Lire Peirce aujourd'hui**, Editeur: De Boeck-Wesmael, 1991
- **Deledalle, (Gérard) : "Avertissement aux lecteurs de Peirce"** , in Langages n 58
- **Deleuz, Gilles, Fellix Guattari : Qu'est ce que la philosophie, Ed** Minuit, 1991
- **Eco (Umberto) : Lector in Fabula,** Ed Grasset 1985
- **Eco (Umberto) : La structure Absente,** Ed, Mercure de France, pp. 66 - 67
- **Eco (Umberto) : Les limites de l'interprétation**, éd Grasset, Paris 1990
- **Eco (Umberto) : le signe**, éd Labor, 1988

- **Everert-Desmedt (Nicole) : Le processus interprétatif:** *Intoduction à la sémiotique de C . S . Peirce Ed Mardagua 1990*

-**Fischer, Roland: L'Analyse structurale de la réalité,** *in* Diogène, 129 , 1985

- **Gary-Prieur (Marie-Noel) : La notion de connotation (s),** Littérature n 4

- **Greimas, A . J: Du sens,** éd Seuil, 1970

- **Greimas, A . J : Sémantique structurale,** éd Larousse, 1966

- **Kalinowski , Georges: Sémiotique et Philosophie,** éd Hades-Benjamins,1985

- **Kant: Critique de la raison pure,** éd Flammaion, 1978

- **Malmberg , Bertil: Signes et Symboles,** éd Picard, 1977

- **Marcuse, Ludwig: La Philosophie Americaine,** éd Gallimard, col Idées, 1967

- **Martinet, Janne : Clefs pour la sémiologie,** éd Seghers, 1973 - 1975

- **Marty (Robert) : La théorie des interprétants;** Langages 58

- **Molino (Jean) : Intrpréter** **,in l'interprétation des textes,** ed minuit, 1989

- **Mounin, Georges: Introduction à la sémiologie,** éd Minuit, 1970

- **Peirce CS: Textes anticartesiens,** présentation et traduction Joseph Chenu, éd Aubier, 1984

- **Peirce C S: Textes fondamentaux de Sémotique**, tra Berthe Fouchier-Axelsen et Clara Foz, éd Méridiens Klincksieck , 1987

-**Peirce (CS) : Ecrits sur le signe,** Ed Seuil Paris 1978

-**Rastier, François: Sémantique interprétative,** éd P U F , Paris 1987

-**Rastier, François: Sens et textualité,** éd Hachette université, 1989

- **Réthoré , Joelle : La Sémiotique phanéroscopique de C S Peirce,** Langages *n* 58

- **Ricoeur, Paul: La grammaire narrative de Greimas,** Actes sémiotiques, 1980

- **Jakobson, Roman: Essais de linguistique générale T 1,** éd Minuit, 1963

- **Savan (David) : La Sémiotique de Peirce,** Langages 58

- **Savan (David) : La Sémiosis siciale,** éd, P UV, 1987

- **Tiercelin, Claudine: C.S. Peirce et le pragmatisme,** Ed, PUF, 1993

- **veron (Eleseo) : La sémiosis et son monde;** Langages 58

ـ زكريا ابراهيم : كانت أوالفلسفة النقدية ، دار مصر للطباعة ، 1987 .

ـ أمبيرتو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية ، ترجمة سعيد بنكراد ، المركزالثقافي العربي ، 2000 .

ببليوغرافيا

خاصة

ببعض الأعمال التي انجزت حول بورس

Fisette, Jean
Titre: Pour une pragmatique de la signification! Jean Fisette
Editeur: XYZ 1997

Chauviré, Christiane
Titre: Peirce et la signification! Christiane Chauviré
introduction à la logique du vague
Editeur: PUF , 1995

Peirce, Charles Sanders
Titre: Le raisonnement et la logique des choses/ Charles Sanders Peirce introd. Kenneth Laine Ketner, Hilary Putnam trad. de l'américain Christiane Chauviré, Pierre Thibaud,
Claudine Tiercelin
les conférences de Cambridge 1898
Editeur: Cerf, 1995

Charles Sanders Peirce / éd. Denis Miévillecolloque de Neuchâtel, 16-17 avr. 1993
apports récents et perspectives en épistémologie, sémiologie, logique: actes
Editeur: Université de Neuchâtel, 1994

Tiercelin, Claudine
Titre: C.S. Peirce et le pragmatisme / Claudine Tiercelin
Editeur: PUF, 1993

Tiercelin, Claudine
Titre: La Pensée-signe / Claudine Tiercelin
études sur C.S. Peirce
Editeur: J. Chambon, 1993

Deledalle, Gérard
Titre: Lire Peirce aujourd'hui / Gérard Deledalle
Editeur: De Boeck-Wesmael
Ed. universitaires, 1991

Marty, Robert
Titre: L'Algèbre des signes/ Robert Marty
essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders
Peirce
Editeur: J. Benjamins, 1990

Everaert-Desmedt, Nicole
Titre: Le Processus interprétatif/ Nicole Everaert-Desmedt
introduction à la sémiotique de Ch.S. Peirce
Editeur: Mardaga, 1990

Deledalle, Gérard
Titre: Charles S. Peirce, phénoménologue et sémioticien! Gérard
Deledalle
Editeur: J. Benjamins, 1987

Peirce, Charles Sanders
Titre: Textes anticartésiens / Charles Sanders Peirce
Editeur: Aubier-Montaigne, 1984

Deledalle, Gérard
Titre: Théorie et pratique du signe/ Gérard Deledalle
introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce
Editeur: Payot, 1979

Peirce, Charles Sanders
Titre: Ecrits sur le signe / Charles S. Peirce
Editeur: Seuil, 1978

Thibaud, P.
Titre: La Logique de Charles Sanders Peirce/ THIBAUD, P.
De l'algèbre aux graphes
Editeur: Université Aix-Marseille 1, 1976

Marty, Robert
Titre: L'Algèbre des signes/ Robert Marty
essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders Peirce
Editeur: J. Benjamins, 1990

Julien, Mariette
Titre: L'image publicitaire des parfums/ Mariette Julien
communication olfactive
Editeur: Harmattan Inc., 1997

Fisette, Jean
Titre: Pour une pragmatique de la signification/ Jean Fisette
Editeur: XYZ, 1997

Chateau, Dominique
Titre: Le bouclier d'Achille / Dominique Chateau
théorie de l'iconicité
Editeur: L'Harmattan, 1997

Descombes, Vincent
Titre: Les institutions du sens/ Vincent Descombes
Editeur: Minuit, 1996

Chauviré, Christiane
Titre: Peirce et la signification! Christiane Chauviré
introduction à la logique du vague
Editeur: PUF, 1995

Habermas, Jürgen
Titre: Textes et contextes / Jürgen Habermas trad. de l'allemand

Mark Hunyadi et Rainer Rochlitz
essais de reconnaissance théorique
Editeur: Cerf, 1994

Charles Sanders Peirce/ éd. Denis Miévillecolloque de
Neuchâtel, 16-17 avr. 1993

Apel, Karl Otto
Le Logos propre au langage humain / Karl Otto Apeltrad. de
l'allemand Marianne Ch arrière et Jean-Pierre Cometti
Editeur: Eclat, 1994

Tiercelin, Claudine
Titre: C.S. Peirce et le pragmatisme / Claudine Tiercelin
Editeur: PUF, 1993

Tiercelin, Claudine
Titre: La Pensée-signe / Claudine Tiercelin
études sur C.S. Peirce
Editeur: J. Chambon, 1993

Logique et fondements des mathématiques
1 , Logique et fondements des mathématiques / Institut
d'histoire et de philosophie des sciences et techniquesdir.
François Rivenc, Philippe de Rouilhan, 1850-1914 anthologie
Editeur: Payot, 1992

Degrés
67, Sémiotiques visuelles, recherches québecoises
Editeur: Degrés, 1992

Deledalle, Gérard
Titre: Lire Peirce aujourd'hui / Gérard Deledalle
Editeur: De Boeck-Wesmael
Ed. universitaires, 1991

Marty, Robert
L'Algèbre des signes/ Robert Marty
essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders Peirce
Editeur: J. Benjamins, 1990

Part de l'oeil (La)
6 , Le Dessin / présentation Luc Richir
Editeur: Part de l'oeil,1990

Everaert-Desmedt, Nicole
Titre: Le Processus interprétatif/ Nicole Everaert-Desmedt
introduction à la sémiotique de Ch.S. Peirce
Editeur: Mardaga, 1990

Deledalle, Gérard
Titre: Charles S. Peirce, phénoménologue et sémioticien/ Gérard Deledalle
Editeur: J. Benjamins, 1987

Philosophie
10, La Métaphysique de Peirce
Editeur: Minuit, 1986

Callot, Emile
Titre: William James et le pragmatisme / Emile Callot
Editeur: Slatkine, 1985

Deledalle, Gérard
Titre: Théorie et pratique du signe/ Gérard Deledalle
introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce
Editeur: Payot, 1979

سعيد بنكَراد

السميائيات والتأويل

إن السـيـمـيـائـيـات في تصوّر بـورس، لـيست مجرّد أدوات إجرائية لقراءة هذه الواقعة النصيّة أو تلك، وليست نموذجاً تحليلياً جاهزاً قادراً على الاجابة عن كل الأسئلة التي تطرحها الـوقـائـع. إنـه عـلـى الـنـقـيض مـن ذلك فـعـل، أي سـيـموز، والسيموز سيرورة لانتاج الدلالة ونمط في تداولها واستهلاكها. إنـه تصـوّر مـتـكـامـل لـلـعـالم. هـذا الـعـالم الـذي هـو سـلـسـلـة لا مـتـنـاهـيـة مـن الأنساق الـسـيـمـيـائـيـة، أي الـعـلامـات، يشير إلى اسـتـحـالـة فصـل الـعـلامـة عـن الـواقـع، فـالـواقـع هـو نـسـيـج مـن الـعـلامـات، أي سـلـسـلـة مـن الاحـالات الـتـي تـضـمـحـلّ لحظة استعيابها في الفعل الانساني.

إلا أن اضمحلالها هذا ليس موتاً نهائياً، إنه موت مؤقت وعرضي. ذلك أن هذا الفعل الانساني يولّد من جديد، لحظة تحققه، سلسلة من العلامات التي تُدرج ضمن سلسلة جديدة من الاحالات.. فكل فكر يحتاج إلى فكر آخر، فكر سابق وهكذا إلى ما لا نهاية.

إن الـسـيـمـوز تساؤل حـول المعنى، وحـول شـروط انـتـاجـه وأشكال تجليّه. إنه لهاث وراء معنى لا يستقر على حال. ولكن التأويل، عند بورس، ليس انسياباً دلالياً لا حد له. فهو يقر بأن التأويل يتم وفق ...

مبرر وجود النص، الذ...

لوحة الغلاف: ماري م...

المركز الثقافي العربي ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت - لبنان

ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب

)53 681054